# نساء رائدات

## ٣

## من الشرق

املي نصرالله

دار الكتب الحديثة

SCANNED BY JAMAL HATMAL

إمِلي نصرالله

# نساء رائدات

## مِنَ الشرق

(٣)

دار الكتب الحديثة

تصميم الغلاف: وسيم قيس

جميع الحقوق محفوظة
للمؤلفة والناشر

الطبعة الثانية
2003م ـ 1424 هـ

ISBN: 9953-439-42-7

دار الكتب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - محطة النويري - شارع عبد الغني العريسي - ص. ب: 14/5276 بيروت - لبنان
هاتف: 01/666700 فاكس: 009611/652052

# أم كلثوم

«سمعت صوت الشيخ أبو العلا وهزّني... وكنت أشعر بأنه يغني لي وحدي...».

كتبت مجلة «**لايف**» الأميركية، عام ١٩٦٢، مقالاً جاء فيه: «**في الساعة العاشرة ليلة كل خميس، أول يوم من الشهر، يحدث أمر غريب في الشرق الأوسط: يهدأ الضجيج في شوارع القاهرة فجأة. وفي «الدار البيضاء» التي تبعد مسافة ألفين وخمسمائة ميل إلى الغرب، يكف الشيوخ عن لعب الطاولة في المقاهي. وفي بغداد، التي تبعد ثمانمائة ميل الى الشرق، يحدث الشيء نفسه: هناك حدث يشغل الجميع. وبين هذين الحدثين الجغرافيين، على طول الصحراء وعرضها، يأوي البدو إلى خيامهم، وينتظرون... كلهم ينتظرون برنامجاً معيناً يذيعه راديو القاهرة. مدة البرنامج خمس ساعات، لثماني مرات في السنة. ونجمته مطربة اسمها أم كلثوم**»...

* * *

لم أجد أفضل من هذا الوصف الواضح، للمناخ الذي لف العصر، وسيطر على أجواء الفن والطرب، مدة ستين سنة.

**أم كلثوم** التي أُطلقت عليها شتى الألقاب الطنانة بدت في عَيْنَي صحافي غربي «هرماً» عصرياً، يضاهي بعظمته، أهرام الحضارة المصرية الغابرة.

وكانت «هرماً» حياً. بل ينفخ الحياة في نفوس الملايين، ينعشهم، ويوقظهم، في تلك الليلة المنتظرة، ليشعروا بأن هناك ما يجمع بينهم،

يوحدهم بالفرح والفن: إنه الصوت الجميل، والصوت المعجزة. وخلف الصوت، تقف المرأة، بكل الجلال والعظمة، وبكل الجمال الخاص بها، والذي لم يتردد أحد الكتّاب من تشبيهه بجمال «نفرتيتي»، الفرعونة الرائعة الحسن.

* * *

وقصة المرأة تُحكى. بل إنها مستكملة كل عناصر الحكاية، من دون أن ينقصها الجانب الأسطوري، والذي تفتّح في كل نقلة قدم، منذ ولادتها، طفلة عادية، في إحدى قرى الريف المصري.

وليس هناك تاريخ واحد يمكن أن نعتمده لنؤرخ به ساعة الولادة: فبعض الذين كتبوا عنها جعلوا التاريخ العام ١٩٠٩ او ١٩٠٤ . وفي جواز سفرها أنه ١٩٠٠ . وفي «الموسوعة العربية الميسرة» هو العشرون من كانون الأول عام ١٨٩٨، وربما هذا هو الأرجح.

ولدت **فاطمة البلتاجي** في طماي الزهايره مركز السمبلاوين. أبوها **الشيخ إبراهيم** كان إمام المسجد. وأمها **فاطمة الباز**. وقد سموها **أم كلثوم** تيمناً بإحدى كريمات النبي. وهي الصغرى بين أحد عشر ولداً، بقي منهم على قيد الحياة أختها الكبرى وأخوها.

وقد ألحقها أبوها، مع أخيها، **بكتاب الشيخ عبد العزيز حسن**، حيث حفظت القرآن الكريم وجودته. وكان أبوها يساعدها في إتقان التجويد وترتيل المدائح النبوية، فتصغي إليه جيداً، ثم تردد ما سمعته، في خلوتها، إذ لم تكن تجرؤ في البدء، أن تُسمع صوتها لأبيها.

وفي يوم سمع الأب، مصادفةً، صوتاً رخيماً، يرتل حسب الأصول. وذهل حين عرف أن صاحبة الصوت هي ابنته **فاطمة**.

وأدرك للتو انه أمام كنز فني عظيم. فقد كان بحاجة إلى ذلك الصوت... يدعم صوت فتاه، في الأفراح والمآتم، المناسبات التي يطلب فيها الترتيل، والتجويد.

ولكن العقبة في ان صاحبة الصوت أنثى، ولم يسبق أن ظهرت فتاة في تلك المناسبات. وهنا لجأ إلى حيلة مبتكرة، فخلع على ابنته، والتي لم تكن تتجاوز التاسعة من عمرها، رداء الفتيان، وألبسها الكوفية والعقال، وهكذا، لم يعد هناك ما يعيق فاطمة عن مرافقة أخيها، وبجرأة، لاحياء الحفلات. وظلت المطربة الكبيرة، تذكر من تلك المرحلة، أموراً طريفة، منها: أن أول أجر تقاضته كان طبق مهلبية... ثم تدرجت إلى الحصول على عشرة قروش، كانت تسند زاوية من حياة العائلة المحدودة المورد.

وتذكر، أيضاً، من تلك المرحلة، ثلاثة أحداث غيرت مجرى حياتها، وهي: إصابتها بالرمد. وقد باعت أمها إسوارها الذهبي وأرسلتها لتتعالج في القاهرة، ولولا ذلك لفقدت بصرها.

الحادثة الثانية كانت تنتظرها على الطريق إلى الكتّاب. وكانت تمر ببيت العمدة، وفيه «فونوغراف» قديم، تدور عليه أسطوانات مكسرة «ولولا هذا اللقاء لما سمعت الموسيقى، ولما تعلمت القراءة ولما فهمت الأغاني التي أغنيها».

الحدث الثالث كان ثورة أمها حين أخذت إحدى سيدات القرية أخاها، ودقت له على يده بعض الوشم. ولولا غضب الأم، لشوهوا وجه أم كلثوم.

وتقول عن الأسطوانات: «**لقد سمعت صوت الشيخ أبو العلا**

**وهزني. وكنت أشعر بأنه يغني لي وحدي. وبعدما يصمت، كان الصوت يستمر يغني في أذني».**

* * *

الإنسان، يواجه قدره. وترسل العناية الإلهية أشخاصاً وأحداثاً، ينعطفون به، يرفعونه يدفعونه، ويغذون بذرة الموهبة في ذاته، ويتعهدونها لتعطي أحلى الثمار.

وهذا بالضبط ما حدث للفتاة الصغيرة. فقد بدأ الصوت يوسع مكانه، ويبحث له عن مدى أرحب للانطلاق. وانتقل صيت «**الولد الصغير** إلى القرى المجاورة. وكان الأب ينتقل مع ولديه، ويلبي الدعوات لتقديم التواشيح الدينية.

وفي يوم، التقى عند محطة السمبلاوين، **الشيخ أبو العلا محمد** وتحدث إليه. وبالنسبة الى الطفلة فاطمة، كان ذاك لقاء قدرياً، إذ لم يلبث الشيخ أن أصبح أستاذها. وهو أول من تعهد صوتها. وكان سيد ملحني القصائد في حينه. ووضع ألحاناً لقصائدها الأولى، وغنت له «**وحقك أنت المنى**» و «**أفديه ان حفظ الهوى**» و «**أمانا أيها القمر المطل**» وقد غنتها بلا إيقاع ولا موسيقى.

واجتازت الاختبار، واضعة علامة جديدة على مفترق طرق الغناء العربي.

لم تنتقل أم كلثوم إلى القاهرة دفعة واحدة، فبقيتْ فترة تتردد بين قريتها والمدينة الكبيرة. وفي العام ١٩٢٠ احيت حفلتها الأولى في القاهرة بمساعدة **زكريا أحمد**، وكان متعهد صوتها في حينه.

بعد ذلك التقت الشاعر **أحمد رامي** وكان راجعاً من باريس حيث درس اللغة الفارسية. غنت له «**الصب تفضحه عيونه**» من ألحان أبو العلا. وفي تلك السنة أيضاً التقت الفنان الدكتور **أحمد النجريدي** الذي لحن لها ثلاث عشرة أغنية من شعره وشعر أحمد رامي واللغوي علي الجارم.

وقد لقنها **النجريدي**، كذلك، الضرب على العود، ومنه تدرجت إلى عبقري هذه الآلة **محمد القصبجي**، وهو أستاذ **محمد عبد الوهاب**. وقد استفادت التلميذة النابهة من **القصبحي** الذي أطلعها على معلوماته الوافرة في التراث الفني، ولحن لها أغنيات خالدة، لكن طريقها لم تكن سهلة، ففي الساحة فنانات راسخات الجذور، أبرزهن **منيرة المهدية**. وكان من الطبيعي إذًا، أن يدور صراع، وقفت له **أم كلثوم** بجرأة وثقة. عام ١٩٢٨، غنت للقصبجي «**إن كنت أسامح نفسي...**» وسجلتها على أسطوانة. وربما كانت هذه أول أغنية تسجل لها، وهناك من يقول: **بل كانت الأولى المسجلة «مالي فتنت بلحظك»**. وهذا الخلاف ليس مهماً، ما دامت الفنانة قد تجاوزت الأوليات وأصبحت على طريق النجاح.

* * *

الخطوة التالية كانت ظهورها على المسارح، يرافقها موسيقيون لمعت أسماؤهم في سماء الفن مرحلة زمنية طويلة، ومنهم: **القصبجي**، على العود، **محمد العقاد**، على القانون، **وسامي الشوا** على الكمان.

وقد حاولت **أم كلثوم** أن تلحن أغنياتها بنفسها. واكتفت بمحاولتين، ثم تخلت عن التلحين، لأنها، كما صرحت في إحدى المقابلات الصحفية، كانت تؤمن بالتخصص، وشعرت بأن قوتها تكمن في صوتها الفريد المميز، ثم في مقدرتها الرائعة على الأداء. وظل **القصبجي** يلحن لها من العام ١٩٢٤ حتى **١٩٤٨** . كما استمر في العزف على العود مع فرقتها حتى وفاته عام ١٩٦٦ . وكانت تحفظ له الكثير من الوفاء والتقدير. وبقي كرسيه شاغراً على المسرح لمدة أربع سنوات.

ولم يستأثر وحده بالتلحين لها، إذ كان هناك فنانون غيره منهم، **داود حسني**، لحن لها إحدى عشرة أغنية. ثم تعرفت على الملحن **رياض السنباطي** وغنت له رائعته «**النوم يداعب عيون حبيبي**» وذلك عام ١٩٣٦ . ويعتبر الثلاثة: **زكريا أحمد، القصبجي والسنباطي**، رفاق الطريق، بالنسبة الى الفنانة الكبيرة، لا بل رفاق العمر.

* * *

ابتداء من العام ١٩٣٥ اهتمت أم كلثوم بالسينما. ومثلت في ستة أفلام أولها «**وداد**» ثم «**نشيد الأمل**»، «**دنانير**»، «**عايدة**»، «**سلامة**» و«**فاطمة**» وكان دورها غنائياً.

لكنها عزفت عن التمثيل بعدما اقتنعت بأن دورها الأهم هو في الغناء. وكانت قد بدأت منذ مطلع الأربعينات حفلاتها الشهيرة على مسرح الازبكية. وكانت تغني بلا مكبرات صوت، وتقدم ثلاث وصلات. وبعد العام ١٩٦٦ نقلت حفلاتها إلى قاعة سينما قصر النيل، وصارت تستخدم مكبرات الصوت. بعد العام ١٩٦٧

اقتصرت حفلاتها على وصلتين فقط، وذلك نزولاً عند نصيحة الأطباء.

* * *

يجدر بنا أن نتوقف لحظات لنتساءل: كيف وصلت الفتاة القروية، المتخفية في ثياب فتى، كيف وصلت إلى قمة المجد الفني؟!..

ترد هي على السؤال في إحدى المقابلات فتقول: «**بعون الله، ثم الجد والتعب والعرق**».

ووصلت بفضل شخصيتها القوية، المتحدية، المصرة على النضال والتغلب على الصعاب؛ وبفضل ذكائها، وسرعة خاطرها. يصفها صحافي لبناني الأصل، في أيامها الأولى فيقول: «**محتشمة في ملابسها... في وجهها من معاني التفكير والألم، أكثر مما فيه من معاني الابتهاج. وفي وجهها جمال لا أستطيع وصفه، أهو عربي، أم يوناني؟ أم مصري عصري أو فرعوني؟... هي روح ثائرة، إنما ثورتها داخلية، لا تعدو قلبها الخفاق**».

* * *

وقلبها ظل مغلقاً بخاتم الصمت والغموض. لم تبحث مرة، أو تسمح لأحدهم أن يبحث معها في خصوصياتها، أو شؤون القلب. إنما الوقائع تشير إلى أنه كان هناك زواج، في مطلع حياتها، أحيطت تفاصيله بالسرية والكتمان. فقد تزوجت، عام ١٩٤٨، بالملحن المعروف محمود الشريف. وكل ما قاله محمود في هذا الزواج: إنه كان ينوي أن يقيم مسرحاً غنائياً دائماً، هو يلحن، وهي تغني... والمعروف أنه لم يضع لها أي لحن طوال حياتها.

وتزوجت عام ١٩٥٥ الدكتور حسن الحفناوي، ووضعت عليه شرطين: الشرط الأول، ألا يحضر حفلاتها الغنائية. والشرط الثاني ألا يطلب منها نقوداً، حتى لا يظن أنه تزوجها من أجل ثروتها. ويروى بأنه طلب منها مرة، بعض المال، حين شاء أن يبني مستشفى، فاعتبرت ذلك إخلالاً بالشرط. وكانت علاقتهما طيبة، يسودها التفاهم والاحترام المتبادل.

* * *

كان لأم كلثوم اسلوبها في اختيار قصائد أغنياتها. وأبرز الشعراء الذين غنت لهم **أحمد رامي** الذي رافقها حتى النهاية، كذلك غنت من شعر **حافظ إبراهيم، وعمر الخيام، ومن نزار قباني وجورج جرداق، وصلاح جاهين والسوداني الهادي آدم** وسواهم.

وظلت لها طريقتها، تختار من القصيدة الأبيات التي تروقها، ثم تقرأها وتعيد. وتحاول أن تقنع الشاعر (إذا كان على قيد الحياة) بأن يبدل كلمة لا تعجبها. فهي لا تتلقى الشعر والنغم، بل تتفاعل معهما، وتعيشهما وتدخلهما إلى ذاتها، ليصبحا جزءاً من كيانها.

وكان يهمها الشعر، مبنى ومعنى. ولم يعرف عنها انها غنت «الطقاطيق» الخفيفة. فالغناء حالة وجدانية راقية، تدخلها بكل العدة والعتاد. وبجدية واحترام يقربان من الخشوع. ولم تتوصل إلى هذا الموقف من فنها بسهولة، فقد شعرت باكراً جداً، بأن دراسة الكتاب لا تكفيها لبلوغ القمة، فاستعانت لذلك، بالمطالعة، كما درست اللغتين الإنكليزية والفرنسية. إلى جانب التركيز على الثقافة الفنية، وقد استفادت من السلف، ومن معاصريها، واجتذبت اعظم المواهب

لمرافقتها، والاحاطة بها. وإذا كان بعض الناس يعتبرون النجاح حظاً، فإنه ليس كذلك بالنسبة الى أم كلثوم. ربما رافقها الحظ عند المنعطفات، وكانت هي ذكية، واعية، متفتحة على كل المعطيات، تستفيد منها وتوظفها في التيار الذي يدفع فنها، وبالتالي يدفعها، على سلم الرقي والمجد.

ولا نستطيع، ونحن نسجل سيرتها، ونلملم بعض أطراف الحكاية، إلا أن نتوقف عند شخصية هذه الفنانة، وكانت شخصية مميزة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وبفضل قوة شخصيتها، استطاعت أن تفرض نفسها لا على الأغنية والفن، فحسب، بل على مرحلة زمنية دامت ستين عاماً. وهي المصرية الجذور، ظلت مخلصة لأصلها وجذورها، مع انفتاح على التراث العربي، ثم انتشار في مساحة البلاد العربية، جغرافية وبشراً. والذين عرفوها عن كثب، تحدثوا عن ذكائها الفطري، وسرعة خاطرها، ونباهتها، وبعدها عن الابتذال، واستقلالها في الرأي، بل وفرض سيادتها واحترامها على كل من أحاط بها من شعراء وفنانين ومعجبين. كما فرضت نفسها على الجمهور، تقوده إلى عوالم الفرح، والتجاوز للواقع، وربما للحس. فهي، حين تصعد المسرح، تطل على الجمهور، بأناقتها الفريدة (كانت تصمم ثيابها بنفسها ولا تتبع الموضة) وتحمل بين يديها منديل الحرير، الذي يمتص القلق، وما يعصف في نفسها من خوف. أجل، ان **أم كلثوم**، القوية، الواثقة بنفسها وإمكاناتها، كانت تصاب برهبة المسرح، فتقف لحظات خلف الستارة، قلبها يخفق، وهي تردد آية الكرسي، إلى أن يهدأ الخفقان، فتأمر بفتح الستارة، ويبدأ الاحتفال...

كذلك، عرفت في جلساتها الخاصة، بروح النكتة، ميزة الشعب المصري على وجه العموم. وقد كتب الأستاذ **سعيد فريحة** في ذلك يقول: «**لو شئنا أن نجمع النكات التي أطلقتها أم كلثوم في حياتها، لاحتجنا إلى مجلدات**». أما إخلاصها فيتحدث عنه عبد الوهاب ويقول: «**من مظاهر إخلاصها ما يراه المستمع في الصالة، انه لا يرى مطربة تغني، لكنه يرى فنانة تتعب، فنانة تعرق، فنانة تعطي كل ما عندها للمستمع، ولا تضن عليه. إنها تعطيه دموعها وأنفاسها وليس صوتها وحده**».

ومن علامات وفائها للأصدقاء والمتعاملين معها قصتها مع **أحمد الجاك** صاحب مقهى «كوكب الشرق». فقد كان أول من دعاها إلى إحياء حفلة في لبنان، عام ١٩٣٤، وكانت مسموعة على أسطوانات. وأقامت الحفلة في «التياترو الكبير» وضجت بها الدنيا، حتى باتت اشبه بأسطورة تمشي على الأرض. وظلت تأتي إلى لبنان، بدعوة من ذلك الصديق، فتحيي حفلاتها في الأونيسكو، في «الريڤولي»، في «بيسين عاليه» إلى أن نشأت فرقة مهرجانات بعلبك، فصارت تلبي دعواتها.

ومثل وفائها لآل الجاك كان وفاؤها للقصبجي، الذي أبقت مقعده فارغاً على المسرح، بعد وفاته، ولمدة أربع سنوات.

* * *

هذه الإنسانة الكبيرة، لم تبلغ الذروة بلا مشقة. وقد بدأنا نرصد طريق صعودها، في مواجهة شتى الصراعات. وحين وقفت فوق القمة، واجهتها مشقات أخرى، هي غير منافسة الفنانين: فالفنانة التي

غنت لكل العرب، في بلادهم، وفوق مسارح عواصمهم، كما عاشت في وجدانهم، كان لا بد لها من أن تتأثر بتحولات وأحداث سياسية. وقد حاولت، طوال حياتها، ألا تقحم السياسة في فنها، ومع ذلك لم تسلم من بعض رياحها. ففي بدء ثورة ١٩٥٢ منعت أغانيها. وكان قائد الجناح وجيه أباظة. وجاء جوابها على ذلك: «لم أجلس على عرش الغناء بمرسوم ملكي، حتى أخلع عنه بقرار مجلس الثورة». وانتصر لها عبد الناصر. إلا أنها رفضت العودة إلى نقابة الموسيقيين وكانت رئيستها... وظلت تغني بناء على رغبة الجمهور، وتقدم الوصلة الثالثة، على مزاجها. والمعروف أن الرئيس **عبد الناصر** كرّمها، وبتشجيع منه، تم اللقاء الفني الكبير بينها وبين محمد عبد الوهاب، عام ١٩٦٣، في أغنية «**أنت عمري**» التي لاقت نجاحاً عظيماً، وحين أذيعت من راديو القاهرة، توقف السير وأغلقت المخازن أبوابها.

كان للفنانة الكبيرة مواقف من الأحداث والأشخاص، لا بد من تسجيلها، كي تكتمل الصورة، ونحيط، بأوسع مساحة ممكنة من شخصيتها الفريدة: موقفها الأول من والديها كان اعترافاً، مدى الحياة، بفضلهما عليها. وقد حصلا على المكافأة حين أبصرا نجاحها الباهر.

موقفها الآخر من نفسها، إذ كانت مخلصة لها، ولموهبتها، لا ترتضي الغش أو التزييف، وإذا اكتشفت بأن عملاً معيناً، يخرج بها عن خط مسارها الأساسي، تتخلى عنه، مثلما فعلت بالسينما وبالتلحين. موقفها من الأصدقاء، ومن الفنانين، وكان يقوم على صدق السريرة والإقرار بالفضل والموهبة.

موقفها من المرض، وكانت تكابر وتحاول أن تتغلب على كل نقاط الضعف حتى آخر يوم من حياتها... وهنا لا بأس في أن نذكر بأنها شعرت بضعف في الغدة الدرقية، للمرة الأولى، عام ١٩٤٥ . وبدأ هذا المرض يؤثر على أعصابها وبصرها، فنصحها الأطباء بالمعالجة في مستشفى للبحرية الأميركية.

وأحيطت باهتمام خاص، تقديراً لمكانتها الفنية، وسافرت عام ١٩٥٣، واستمر العلاج ستة أشهر، شفيت بعدها شفاءً تاماً. وظلت تغني في أحسن حالة صحية حتى أواخر الستينات حين بدأت تتعب اثر الغناء. وتخرج من المسرح مبللة بالعرق. وحاول صديقها سعيد فريحة أن يثنيها عن صعود المسرح، وناقشها ساعة أدرك في نهايتها أنه فشل، وهي مصممة على الاستمرار حتى النهاية. وحين لفت نظرها إلى مثل إسباني يقول: «**إن المصارع الذكي هو الذي يغادر الحلبة قبل أن ينطحه الثور**»، كان جوابها: «**ومين قالك أنا مش عاوزة ينطحني الثور؟...**»

ثم تأتي مواقفها الوطنية. وهذه تسجل لها بأحرف من ذهب. فالفنانة التي رفضت أن تحد إثر وفاة أخيها، واستمرت في تقديم حفلاتها، أوقفت تلك الحفلات حين توفي **سعد زغلول**. وفي العام ١٩٦٧، وعلى اثر النكسة، تأثرت إلى درجة قررت أن تعتزل الغناء لكنها تراجعت عن قرارها حين توسط سياسيون، كي تقوم بجولة، وتدعم شعبها بصوتها، وهكذا كان. وجمعت من جولتها في البلدان العربية ما يزيد على مليوني جنيه استرليني قدمتها للمجهود الحربي.

وانقطعت عن الغناء عندما علمت بوفاة الرئيس **جمال عبد الناصر**. وكانت مدعوة لتغني في الاتحاد السوفياتي. وعادت إلى مصر حزينة ولم تغن إلا بعد مرور شهر على وفاة الرئيس، وقدمت أغنية **«رسالة إلى القائد»** من شعر **نزار قباني**.

* * *

ارتبط اسم **أم كلثوم** بأسماء كبار رجال السياسة، الذين كانوا يؤمّون ندوتها، منهم **أحمد حسنين باشا** وكان رئيس الديوان الملكي. حتى كانت هناك إشاعة زواج.

واستمر تقدير الرؤساء من **عبد الناصر** إلى **أنور السادات** عدا الشخصيات المعجبة بفنها من البلدان العربية، وكانت تحجز لهم المقعد الأول في حفلاتها، وتعرفهم بأسمائهم.

ولها مواقف إنسانية من أفراد عائلتها، إذ ساهمت في تعليم أولادهم، ومساعدتهم مادياً. كذلك ساعدت عدداً كبيراً من أبناء قريتها، وتعهدت أولاد زوجها حين لم ترزق هي بأولاد، لا من زواجها الأول ولا من الثاني.

* * *

نعود إلى صوتها المميز، وقد كتبت فيه الصحف الأجنبية، كما العربية. فوصفته مجلة «نيوزويك» بقولها: **«إن عظمة أم كلثوم تكمن في رخامة صوتها القوي العميق وقدرتها على أن تغني بسهولة على جميع طبقات السلم الموسيقي من اعلى طبقة إلى أدنى طبقة»**.

وصحف أخرى قارنت بينها وبين نجوم الغرب المشهورين. وحين غنت في أولمبيا باريس كتب أحد النقاد يقول: **«إجمع فرانك**

**سيناترا، ديناشور، دوريس داي، بنغ كروسبي وأديث بياف في حزمة واحدة، فتحصل على أم كلثوم».**

أما الأدباء والأصدقاء، فلم يصمتوا حيال صوتها المعجزة: **سعيد فريحة يقول: «صوتك آية اللّه فينا. يهدهدنا فنغفو على حلم جميل، ويهزنا فنصحو على نشيد اللّه أكبر».**

وكتب الشاعر **جورج جرداق: «أنت من صوتها في سماء تجمع كل الأصوات»**، واعتبرتها صحيفة أجنبية **«سلاح عبد الناصر القوي»** وقال الشاعر سعيد عقل: **«بموت أم كلثوم، قلّ الحب في الأرض... على ذلك الصوت، ذي النبرة الفضية، فتحنا أعيننا قبل الآذان، وتعلمنا الحياة».**

ومن **عبد الوهاب: «أم كلثوم ملامح عصر، في طريقة الغناء والسلوك والشخصية والخلق، والمصرية. قدمت فناً بلا ابتذال. ورفعت أخلاقيات المهنة».**

وأقوال أخرى كثيرة، لا يتسع مجالها في حكاية مختصرة، شئناها لرسم بعض ملامح من حياتها.

والفنانة، التي توفيت في ٤ شباط عام ١٩٧٥، تركت بعدها ثروة هائلة من التراث الغنائي، إلى جانب ثروتها المالية، التي تقاسمها أخوها وأختها وأولادهما، وزوجها. وتقدر بين ستة وثمانية ملايين جنيه.

أما تراثها الغنائي فهو بحر فياض. ومجموع تسجيلات أغنياتها يبلغ ٦٣٤ ساعة أي ٢٦ يوماً وعشر ساعات. وهذا يعني أربعمائة أغنية يتسغرق بثها بين دقيقتين وساعتين. كذلك وضعت، قبل وفاتها

أي عام ١٩٧٣، حجر الأساس **لدار أم كلثوم لأعمال الخير**. ولم تحرم قريتها من خيراتها، ومساعداتها. وكانت تفعل ذلك بصمت، ومن دون إعلان أو ضجيج.

بقي أن نذكر، أن هذه السيدة التي تربعت على عرش الغناء العربي طوال ستين سنة، والتي يندر أن تتكرر مرتين، كانت مؤمنة، في القول والفعل، وأدت مناسك العمرة مرتين. وذلك الإيمان يعود إلى التربية الدينية التي أمتزجت لديها بالأداء الفني، ومنذ المرحلة الأولى من حياتها.

* * *

والنجاح الذي حققته، لم يكن في السر، بل دوّت به أصداء الكون. تنقلتْ فوق المسارح الشهيرة. ظهرت على أغلفة المجلات الكبرى. اختارتها مجلة «**ماري كلير**» ذات مرة واحدة من خمسين امرأة فرضن شهرتهن على العصر. صورتها طبعت على ميدالية ذهبية تاريخها ١٥ أيار عام ١٩٧١ . ثم قائمة طويلة من الألقاب والجوائز والأوسمة. إنما وسامها الأول والأهم كان نجاحها الفني.

ولا أجد خيراً من وصف للأستاذ **سعيد فريحة**، وقد عرفها عن كثب، ورافق تدرجها وصعودها، فمن قوله: «**إنها تنتقل من نغم إلى نغم. وترتجل أنغاماً فيها اعجاز... كان وراء صوتها العظيم ذكاء عظيم، وكفاءة عظيمة، وخبرة فنية بلغت درجة مذهلة، إذ باتت مرجعاً موسيقياً... فهي تتجاوز اللحن، وتذهب في غيبوبة وهي تغني وتتجاوز اللحن...**»

تلك هي المرأة التي فرشت ظلها الفني، على بلاد العرب، طوال

ستين عاماً. والمرأة التي يصعب أن تتكرر مرتين، إذ كانت فريدة زمانها، ونسيجاً خاصاً، سداه ولحمته الأصالة والذكاء.

---

- نساء متفوقات - سلمى الحفار الكزبري.
- أرشيف دار الصياد في لبنان.
- أرشيف دار الاخبار في مصر.

# فيجايا لاكشمي باندیت

«النساء يتميّزن عن الرجال في المجال السياسي بانهن قادرات، أكثر قليلاً منهم، على الصبر والاحتمال والنفاذ الى صميم المواقف».

نساء الهند البارزات، يتعادلن مع مساحة تلك القارة الآسيوية الغنية بالتراث، العريقة في الأصالة، والمحافظة على الجذور حتى أبعد حدود المحافظة.

وإذا هيمن ظل السيدة أنديرا غاندي على وجه الهند العصرية، فهناك نساء سَبَقنَها إلى العمل السياسي، بل ربما مهدن السبيل الذي سارت عليه فيما بعد.

وأشهر أولئك النساء، وأكثرهن تقدماً عمة **أنديرا، السيدة فيجانا لاكشمي باندیت**. وكانت تقيم عند سفوح جبال الحملايا، في الهند، في بلدة دهرا دون، معتزلة العمل السياسي الذي خاضته وبرعت فيه، بل وبلغت إحدى ذراه الرفيعة.

* * *

ولدت **فيجانا لاكشمي** في ١٨ آب عام ١٩٠٠، في مقاطعة اللّه أباد، في الهند. والدها **موتيلال نهرو**، زعيم وطني معروف، وشقيقها **جواهر لال نهرو**، أول رئيس وزراء للهند المستقلة.

اختار لها أبوها اسم **سواروب** حال ولادتها، والكلمة تعني «**الجميلة**». والجميلة لم تذهب إلى المدرسة بل استدعيت مربية إنكليزية تولت تدريسها في المنزل، مثلما كانت عادة الفتيات الأرستقراطيات. ثم بعثها أبوها إلى سويسرا حيث درست مدة أربع سنوات على أساتذة خصوصيين، وتلقت اللغة الفرنسية، وعادت إلى

الهند، لتندمج في الجو السياسي، الذي فتحت عينيها عليه، وعاشته منذ الطفولة.

وقد شاركت فكرياً وعاطفياً، في صنع الأحداث التي عصفت في بلادها، إذ كانت المرحلة فترة المناداة بالاستقلال وخروج المستعمر البريطاني من الهند. وقد نزلت **فيجايا** باكراً إلى الساحة، وراحت تعمل بكل ما اختزنته من علم وذكاء واندفاع وطني.

وطبق أبوها التعاليم التي نادى بها **الزعيم غاندي** فتخلى عن أملاكه. وهكذا أصبحت العائلة، بين ليلة وضحاها، لا تملك من حطام الدنيا شيئاً.

في فترة نضالها هذه، التقت شاباً شديد الحماسة للمثل الغاندية، واسمه رانجيت سيناريم باندیت، وجدت لديه الكثير من المثل المشتركة، وكان بينهما حب واحترام متبادلان، فقررا أن يتزوجا، وذلك في العام ١٩٢١ . وولدت فيجايا ثلاث فتيات: **الكبرى غاندراليكا** (ومعناها الهلال) **والثانية نيانتارا** (وتعني نجمة العين) **والثالثة ريتا** (أي الحقيقة) وهذه الابنة الأخيرة أمضت عدة سنوات في لبنان، حين كان زوجها سفيراً لبلده في بيروت. أما الكبرى، فقد أصبحت كاتبة ومعلقة سياسية بارزة.

* * *

حاولت **فيجايا** الأم أن تعطي بناتها الكثير من العناية والعاطفة، لكن الحياة السياسية العاصفة، التي عاشتها في مرحلة طفولتهن، جعلتهن بعيدات عن استقرار العائلات العادية، فالأم مناضلة، وهي أبداً في طليعة الصفوف الداعية إلى تحرير البلاد. فقد نظمت الهيئات

النسائية، وقامت بزيارات للأرياف، لا لتخطب في النساء، بل لتعلمهن الغَزْلَ، ومقاطعة البضائع الإنكليزية.

وكانت في طليعة المتظاهرات الداعيات إلى نبذ كل ما هو من صنع المستعمر، واشتركت في الاحتفالات الوطنية التي كانت تقام في الساحات، وتحرق خلالها الأمتعة الأجنبية.

كذلك تولت السيدة **باندیت** مهمة اقناع مواطنيها بمقاطعة الاحتفالات الحكومية الرسمية، واعتقلت بسبب ذلك، وسجنت. ولما خرجت من السجن، تزعمت حركة التحرير. وحين اعتقل زعماء الحزب، عام ١٩٣٢، تسلمت السيدة **باندیت** القيادة مع غيرها من السيدات الواعيات.

لكن السلطة المستعمرة عادت إلى اعتقالها وسجنها من جديد، وقضت في السجن، في المرات الثلاث، ما يقارب الثلاث سنين...

* * *

وكلما عادت المناضلة إلى البيت، كانت تحضن فتياتها، وتفهمهن أسباب ابتعادها عنهن، ومعنى اقتيادها إلى السجن. لكن الفهم، لا ينفي الخوف والقلق، الذي عاشته الصغيرات، لذا قرر الوالدان، أن يبعدا الكبيرتين إلى أميركا، كي تتابعا دراستهما فيها. وبقيت ريتا الصغيرة قُرب أمها، التي بدأت تتسلم مراكز إدارية وسياسية. ففي العام ١٩٣٥ انتخبت رئيسة لجنة التعليم في بلدية اللّه أباد. ثم تسلمت وزارتي الصحة والحكم الذاتي، وكانت أول سيدة هندية تعطى حقيبة وزارية.

ومن عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٢ ترأست مؤتمر نساء الهند، في حركة اللاتعاون.

وكان عليها، فوق هذه المسؤوليات جميعها، أن تشد من عزم ابنتيها الغائبتين. وقد كتبت نيانتارا عن «**أمي الجميلة الرائعة، التي تحول الغرفة الصغيرة إلى دارة عامرة، والطبق الصغير من الطعام إلى مائدة حافلة**».

تلك الأم الساحرة، زودت بنتيها، لدى سفرهما، بالعبارة التالية:

«**عندما يسافر الهندي إلى أي مكان في العالم، فإنه يحمل في نفسه قطعة من وطنه. عليه ألا ينسى هذه الحقيقة، لأنه مسؤول عن تصرفاته، فإما أن يجلب لوطنه الكرامة والاحترام، أو الخزي والعار**».

* * *

كان أول المعجبين بشخصية السيدة الكبيرة، الحكام الإنكليز أنفسهم، فقد خبروا أصالة جوهرها، وتصميمها المخلص على مساعدة الطبقة الهندية الكادحة. وكانت أول إنطلاقة لها في السياسة الدولية سنة ١٩٤٦ حين ترأست وفد بلادها إلى أميركا، وراحت تستغل كل سانحة لتندد بتصرف **المارشال سماتس** في جنوب أفريقيا، وبسياسته القائمة على التفرقة العنصرية.

والذي كان يهمها من ذلك، هو افراد الجالية الهندية في تلك البلاد، وقد حصلت حوادث عنف خطيرة ضدهم.

ويذكر أنها، بعدما ألقت خطاباً عاصفاً نال إعجاب الجمهور، اقتربت من المارشال وصافحته قائلة:

**«أرجو أن لا أكون آذيت شعورك الشخصي، فقد تلقيت تعليمات من المهاتما غاندي كي أصافحك وأطلب بركتك لنجاح قضيتنا».**

هذا مثال بسيط على اعتماد السيدة **باندیت**، في نضالها السياسي، على القيم الخلقية والروحية التي نادت بها فلسفة **غاندي**. كانت تهدف إلى إظهار الحق، واحترام القيم الإنسانية، من دون أن تعتدي على إنسانية الآخرين:

**«إني أعبر عن حقوق ستمائة مليون من المستعبدين في آسيا... ولن يكون هناك سلام على الأرض ما دام هؤلاء محرومين من حقهم في الحرية والعدالة».**

هكذا خاطبت العالم، من فوق المنبر الدولي. وكانت تتحدث بهدوء، يصفه أحد الصحافيين بقوله:

**«وإنك تلحظ التأثير الساحر الذي يغرسه حديثها في نفوس الرجال العظماء، فإن صفاء نفسها، وهدوءَها ولباقتها، هي الصفات التي جعلتهم يلتفون حولها حيثما وجدت».**

بعد هذه التجربة انطلقت السيدة **باندیت** في العمل السياسي والدبلوماسي، مكرسة وقتها وجهدها لخدمة بلادها.

* * *

وقد تجلت تلك الخدمة في عدة مناصب تولتها، وبكثير من النجاح. فحال عودتها إلى الهند، عينت وزيرة الحكم الذاتي والصحة

للمرة الثانية، ثم عضواً في المجلس التشريعي، وهذا أعطاها السلطة لتعدل في قوانين مجحفة بحق المرأة والعائلة. ففي عام ١٩٤٢ توفي زوجها، متأثراً بحياة العذاب والتشرد التي عاشها، ابان نضاله. ومع أنه خلف ثروة كبرى، إلا أن الزوجة والبنات لم يرثن فلساً، إذ ان الوارث الشرعي، حسب القانون الهندي، هو أخوه.

وكان على السيدة الكبيرة أن تعتمد على كدّها، وعلى الراتب الذي يخصص لها، لتعيل نفسها وبناتها. إلا أن ذلك لم يقلل من قدرها، أو يثبط من عزمها: ففي العام ١٩٤٧ أنشئت أول سفارة للهند في موسكو، ولما انتقلت إلى مقر السفارة، مع مساعديها، كان البناء خالياً من الفرش، مما دفع أحد المراسلين الأجانب، الى أن يطلب منها الجلوس على طريقة اليوغي، خلال ادلائها بحديث صحفي.

وبالطبع، لم تجد في ذلك أية غرابة، وهي التي تربت على التقاليد الهندية، والمحتفظة بروح نكتة تبعدها عن جمود الأجواء الدبلوماسية.

من موسكو انتقلت إلى واشنطن حيث بقيت سفيرة من العام ١٩٤٩ حتى ١٩٥١، وكانت الرئيسة الدائمة للوفد الهندي إلى هيئة الأمم. ومن ثم عينت سفيرة في مكسيكو، لندن، ومدريد.

وفي العام ١٩٥٢ ترأست بعثة حسن جوار قامت بمهمة كبرى إلى الصين.

لكن ذروة مهماتها كانت في ١٥ أيلول عام ١٩٥٣، حين انتخبت رئيسة الدورة الثامنة للجمعية العمومية في هيئة الأمم. وقد تم الانتخاب بواسطة الاقتراع السري، وفازت السيدة **باندیت** بأكثرية الأصوات، وبذلك حصلت لبلادها شرفاً تعتز به.

وتشهد محاضر الجلسات للجمعية العمومية، في حينه، على لباقة هذه السيدة، ومقدرتها، وحكمتها وسرعة بديهتها.

وكانت أول امرأة تتولى هذا المنصب، وقد كسبت ثقة كل من عرفها وعمل معها، كما نالت احتراماً كبيراً نظراً لصفاتها التي أهلتها لتلعب هذا الدور الكبير على المسرح العالمي.

* * *

أتوقف قليلاً، عند هذه الشخصية التي وصفها أحد المعلقين البريطانيين، بأنها «**أدهش امرأة في عصرها**» لأفصل بعض ميزاتها، وقد عرفتها عن كثب خلال زياراتها لبيروت، وكانت في فترة نضجها، وفي أوج شهرتها، لكنها لم تتخل لحظة عن تلك الروح الطيبة، والشخصية المتواضعة، على كبر وأنفة. فهي من هذه الناحية شبيهة جداً بأخيها **نهرو**، الذي ظل قريباً من العامة، برغم مركزه الرفيع، لا يأنف من الإصغاء حتى إلى أبسط الناس...

أول مرة التقينا، كانت خلال حفلة شاي في دار إحدى زعيمات الحركة النسائية في لبنان، وكانت الحاضرات من الوجوه النسائية المعروفة، إن في العمل الفكري أو الاجتماعي.

ودخلت السيدة **باندیت**، ترتدي الساري الهندي الأنيق، وقد تَوَّجت هامتها لمة بيضاء، وأنارت وجهها عينان حادتا الذكاء، وانبسط وجهها الرضي، باستعداد لتلقي كل التحيات.

لم يتسع الوقت للأحاديث الفردية، إذ طلب منها أن تتحدث عن خبرتها السياسية، وهكذا تفيد الجميع، وتفتح المجال لطرح الأسئلة، وأذكر أنها تحدثت ببساطة، وقوة، معتمدة على سرعة الخاطر،

واللمحات الذكية، ونعومة أنثوية تنسجم مع تهدل حرير الساري الهندي الذي ترتديه.

* * *

والمرأة التي عاشت ردحاً من عمرها، في أروقة السياسة الدولية، وفرضت شخصيتها على عصرها، تتحدث بكثير من التواضع، حين يتناول الكلام دورها الشخصي: «**إني أحفظ الجميل لنقادي الذين حكموا عليّ بكثير من اللطف، فقد صغّروا أخطائي وكبروا إنجازاتي... حيالهم، يخالجني الشعور بالتواضع...**».

أما ميزات المرأة السياسية، فقد اختصرتها بعبارات رشيقة، حين قالت: «**النساء يتميزن عن الرجال في المجال السياسي بأنهن قادرات، أكثر قليلاً منهم، على الصبر والاحتمال والنفاذ إلى صميم المواقف**».

ولا شك، في أن هذه من بعض صفاتها، والتي رشحتها أكثر من مرة للأمانة العامة للأمم المتحدة. أما أسباب عدم وصولها، فعديدة وتتعلق بوضع المرأة عامة، لا بشخصيتها بالذات.

* * *

تروي السيدة **باندیت** أنها لم تفهم، لماذا استقبلها الأميركيون، لدى وصولها إلى نيويورك، على رأس الوفد الهندي بعبارة: «**على مهلك، استريحي...**».

وتضيف قائلة: «**لقد حيرتني هذه العبارة، خصوصاً وأني قضيت حياتي أطلب من الناس ألا يستريحوا أو يتمهلوا!...**» لكنها بالطبع،

فهمت معنى هذا الطلب، حين عاشت في نيويورك، حيث الناس في حركة دائمة وسباق مع اللحظات.

أما تأثير **غاندي** على شخصيتها، فقد تحدثت عنه مرة، إلى التلفزيون البريطاني، وذلك بعد مرور سنوات على وفاة الزعيم الهندي العظيم فقالت: «**لا أدري لماذا تأثرت به إلى ذلك الحد. أظن أن إخلاصه هو الذي جذبني إلى اتباع طريقه، ثم حبه الكبير للإنسانية. هذه بعض الصفات التي تجعل الآخرين يتأثرون به، سواء وافقوا على مبادئه أم عارضوها**».

وحين سئلت عن أعظم صفات **غاندي** أجابت، بلا تردد: «**رحمته العظيمة. كان أشبه بالقديسين**».

وماذا عن **غاندي** الحاكمة، ابنة أخيها؟...

العمة لا تتدخل، فلكل عصر رجاله ونساؤه. لكن الذين كتبوا يقارنون بين الشخصيتين، لاحظوا أن **فيجايا** لم تتخل عن أنوثتها، وكانت تتعامل مع الآخرين، من موقع المرأة المؤمنة بأنوثتها، بينما **أنديرا** لجأت أكثر من مرة، إلى أسلوب الرجل، في تعاملها السياسي. وهنا، نتساءل: هل مثل هذه المقارنة جائز؟ خصوصاً وأن هناك اختلافاً كبيراً بين الموقعين اللذين منهما تحركت كل منهما.

لكن صفات أخرى تجمع بين هاتين الشخصيتين العظيمتين، ليس أقلها الميزات التي أشارت إليها السيدة **باندیت** حين ذكرت تميز المرأة على الرجل، في السياسة.

إن المرأة التي بدأت حياتها السياسية، من عضوية المجلس البلدي في اللّه أباد، وتنقلت بين مناصب وزارية ودبلوماسية، وقفزت إلى المركز

الأول في الندوة الدولية... عادت إلى الهند، لتحكم مقاطعة **ماهاراشترا** ثم تنتخب عضواً في البرلمان الهندي من عام ١٩٦٤ حتى ١٩٦٨، وبذلك احتلت المقعد الذي كان يشغله من قبلها أخوها **نهرو**.

واختارت، في سنواتها الأخيرة ان ترتاح من حياة مثقلة بالعمل والعطاء، وتهنأ بأمومتها، وبكونها أصبحت جدة أكثر من مرة. وتعيش قريرة العين، إذ لعبت أدوارها جميعها، بنجاح وراحة بال... وظلّ يقلقها مصير الإنسانية ومستقبلها، فهي تخشى من وقوع حرب ثالثة، وقد ناشدت المرأة في مناسبات عديدة أن تسعى الى أن: «**تحول دون وقوع حرب ثالثة، وتعمل على نشر السلام والحق، وبناء عالم أفضل**»...

---

- سيرة حياة فيجايا - أرشيف وكالة رويتر للأنباء.
- الموسوعة البريطانية (ج ٧).
- مقابلة شخصية.

# سلوى نصار

«إن المرأة لا تستخدم سوى ثلث الطاقة الفكرية التي أُعطِيَتْهَا...».

كانت حياتها أسطورة، ومن عصرنا. بل من سنين لا تزال عالقة في البال. ذلك أن طموحها، الذي دفعها عالياً فوق سلم المجد العلمي، حدد السنوات الغنية بالثمار، فختم العمر، وصاحبته في أوج العطاء.

* * *

الدكتورة **سلوى نصار**. عالمة الذرة الأولى، والوحيدة، ليس في لبنان وحسب، بل وفي شرقنا العربي. كما تُعَدُّ المرأة التاسعة في هذا الاختصاص، في العالم.

خلال البحث عن خلفيات حياتها، والدوافع التي جعلتها تركب ذلك المركب الصعب وتسعى، فوق أرقى الذرى العلمية في هذا العصر، لم يسعني إلا أن أسلم بأن هناك أقداراً تختار أصحابها.

وقد اختارها قدرها، من فوق تلال لبنان، من قرية جميلة وادعة في منطقة «المتن»، ثم دفعها لتقف على خط واحد، مع الأدمغة الكبيرة التي ختمت العصر بخاتم الاكتشافات العلمية ومعجزات حققها الإنسان وكاد، بواسطتها، يتجاوز الخط المحدّد لوجوده فوق الأرض.

ولدت سلوى في السادس من شهر كانون الأول عام ١٩١٣ في قرية جبلية هي «**الشوير**».

والدها، **شكري نصار**، كان إنساناً بسيطاً؛ ووالدتها، **فكتوريا حجار**، المرأة الباهرة الجمال من «**جزين**» في جنوب لبنان، وكانت الأم متعلمة علوماً ابتدائية، وذات شخصية قوية، وأرملة لها ولد وابنة

من زواج سابق... ثم ولدت **سلوى**، وجاءت بعدها شقيقتاها **إيفون وإيلين** وأخيراً **مرسيل** التي ظلّت، بالنسبة الى الشقيقة الكبرى **سلوى**، الطفلة المدللة والحبيبة.

* * *

عرفت العائلة حزن الفاجعة حين توفي الأخ وهو ما زال طالب طب في الحادية والعشرين من عمره، كما توفيت **إيفون**، الصبية الجميلة والعروس المطلة على ربيع الحياة.

وكانت **سلوى**، خلال تلك الفترة، تتابع دراستها العليا في أميركا، فلم يخبرها أهلها، وربما علمت بالنبأ قبيل عودتها.

هذا الغمر من الأحزان، دخل باكراً حياة الأسرة، وترك بصماته في عيني الطالبة المجدة **سلوى**، التي أخذت عن أبيها صفاء النفس والشكل الخارجي، واستمدت الطموح العلمي من عمها المحامي **جبرائيل نصار**، وكان نقيب المحامين، وأشهر مختص في علم الجرائم.

تلقت **سلوى** علومها الابتدائية في مدرسة الضيعة، وعند المعلمة «**ملكة**» ثم انتقلت إلى مدرسة «**عين القسيس**» لصاحبها المعلم **فارس بدر**. وقد ظهر نبوغها في الرياضيات باكراً جداً، وتفوقت على رفاقها من الجنسين، وكان هذا ملفتاً لأستاذها المعلم **فارس** الذي شجع والديها كي يرسلاها إلى مدرسة «**برمانا**» وكانت مخصصة للذكور، وذلك لتتمكن من إنهاء سنتها الأخيرة في المنهاج الثانوي، وتصبح مؤهلة لدخول الجامعة. وهكذا تخرجت **سلوى** عام ١٩٣١ متفوقة على أترابها جميعاً...

وبالطبع لم تتوقف عند هذا الحد، بل قصدت الكلية الوحيدة

للأناث آنذاك، وكانت تعرف باسم «**الجونيور كولدج**» ودرست فيها سنتين، وقبلت بعد ذلك في الجامعة الأميركية، إذ احتل اسمها لائحة الشرف. وقد تخرجت من الأميركية، عام ١٩٣٥، تحمل شهادة بكالوريوس في الفيزياء وبتفوق. بل إنها احتلت المرتبة الأولى بين الذكور وكانت الطالبة الوحيدة بينهم.

ويجدر بالذكر، أن **سلوى**، لم تكلف أهلها نفقات دراستها الجامعية بل كانت تقوم بأعمال منوعة، لقاء منح تساعدها في متابعة الدراسة.

* * *

لكن الوضع المالي حرمها من الاستمرار في الدراسة، خصوصاً وأن لبنان كان يمر في ضائقة مالية حادة، وفرص العمل قليلة، وباب الهجرة مفتوح على مصراعيه، وهكذا وجدت الطالبة ذلك الباب مشرعاً في وجهها، إذ توفر لها مركز كي تدرس العلوم والرياضيات في كلية «بيرزيت» بفلسطين.

بفضل العمل الجديد، باتت **سلوى** قادرة على مساعدة أهلها واخوتها، وكانت دائمة الامتنان لأبيها، الذي ظل يحفزها على متابعة خط طموحها، من دون أن يضع في طريقها الموانع والسدود.

* * *

لا شك، في أن الفترة، التي قضتها سلوى في فلسطين، بلورت شخصيتها الوطنية، فقد تعرفت على الحركة الثورية في منطلقها، وتأثرت حين شنق زعماء الثورة، وتحركت فيها نزعتها القومية والإنسانية.

لكن إقامتها في فلسطين لم تجاوز الثلاث سنوات. وجاءها عرض

من العراق لتدرّس هناك لقاء خمسة وعشرين ديناراً في الشهر. وكان هذا راتباً ضخماً، بالنسبة الى ذلك الزمن.

وهكذا انتقلت إلى «الموصل» حيث سبقتها مربيات وأدبيات لبنانيات أمثال **ميليا مالك خير، روز غريب وأنيسة روضة النجار.**

ومن العراق، تابعت سلوى اتصالاتها بالجامعة الأميركية، وحصلت على منحة من كلية «**سميث**» في ولاية «**ماساتشوستس**» وكانت من أهم الكليات النسائية في حينه، فانتقلت إليها عام ١٩٣٩، وتخرجت منها بشهادة ماجستير في الفيزياء، ونشر بحثها في مجلات علمية مرموقة.

بعد ذلك انتقلت إلى «بركلي» في جامعة كاليفورنيا، وكانت من أهم المراكز لتعليم الفيزياء كما أن أساتذتها كانوا من النوابغ أمثال «**أوبنهايمر**» الذي يلقبونه «**أبو الذرة**» و«**لورانس**» و«**فيرمي**» وهم من حملة جائزة نوبل.

وعادت إلى كلية «سميث» حيث قضت سنتين في تدريس الفيزياء بينما تتابع أبحاثها، وتعد أطروحتها لنيل الدكتوراه. لكنها تأخرت في إنهاء أبحاثها بسبب نشوب الحرب، إذ بات صعباً على الجامعات الحصول على المواد الإشعاعية، كما أن العلماء تحولوا إلى مساندة الدولة في المجهود الحربي.

في هذه المرحلة الدقيقة، قررت سلوى أن تغير موضوع اختصاصها، عام فانتقلت من الأبحاث الذرية إلى الاشعاع الكوني، وحصلت على شهادة دكتوراه في هذا الموضوع عام ١٩٤٥ ومن جامعة بركلي - كاليفورنيا.

وقد تلقت طلبات عديدة لتدرّس في الجامعات الاميركية، غير أنها رفضت تلك العروض، مفضلة العودة إلى لبنان، وإلى «**الجونيور كولدج**» أو «**كلية بيروت الجامعية**» حالياً، فأنشأت فيها، وبمؤازرة رئيسها، أول دائرة للفيزياء والعلوم. أي أنها أرست الحجر الأول في مخططها لدفع المرأة نحو دراسة العلوم والتعمق فيها.

* * *

أين يتوقف طموح الإنسان؟ أطرح هذا السؤال وأنا أتابع حكايتها من أفواه الصديقات والقريبات، من أوراق سجلت فوقها ملاحظاتها وخطبها، ومن زوايا كتاب لرفيقة الدراسة وصديقة العمر **نجلا عقراوي**.

كل نجاح، في تدرجها، كان منطلقاً نحو خطوة أبعد. وفي العام ١٩٤٩ سافرت سلوى إلى فرنسا، وقضت شهراً في معهد «بوليتكنيك» ثم في جامعة «برستول»، في لندن، وذلك من أجل متابعة أبحاثها. ومن ثم التحقت بجامعة «ميشيغن» «آن آربور» لتدرس أحدث ما توصل إليه العلماء في موضوعها، الإشعاع الكوني.

* * *

لم تغب عن الوطن، إلا لفترات محددة، ومن أجل تحقيق الطموح العلمي. وها هي تعود من جديد، لتعمل أستاذة فيزياء، ثم رئيسة لهذا الفرع في الجامعة الأميركية، في بيروت، وذلك حتى عام ١٩٦٥، حين انتخبت رئيسة لكلية بيروت الجامعية.

لكن مدة رئاستها لم تطل أكثر من سنتين، بسبب داء عضال، لم يمهلها لتتابع أغراسها الطريفة في حقول لبنان.

وفي السابع عشر من شهر شباط، عام ١٩٦٧، أغمضت العالمة عينيها بعد صراع بطولي مع الداء، وكانت لا تزال في أوج عطائها الفكري والإنساني.

* * *

هل يقاس عمر الإنسان بالسنين؟ أحياناً نضطر الى أن نتجاوز المقاييس الزمنية، ونقفز إلى حيث تقف الشوامخ الإنسانية، وحيث تتشظى الموهبة، ويشرق النبوغ، فيغمر الحدود، ويغطي الأرقام.

وحياة **سلوى نصار** كانت زاخرة بالعطاء للعلم، للوطن ولكل من أحاط بها من أقارب وأصدقاء؛ هذا إلى تواضع جم، وبساطة في المظهر، وانفتاح في الفكر وحب لا حد له.

هذه المعطيات سمحت لها بأن تتخطى حدود الجامعة، فتبني على مستوى الوطن، بل على مستوى الكون، مستمدة من اختصاصها في الاشعاع الكوني وأسرار الوجود، نظرة فلسفية وطريقة حياة.

وقد مثلت لبنان في عشرة مؤتمرات دولية للذرة، ونشرت أبحاثها أهم المجلات العالمية، وسجل اسمها في الموسوعة الحاملة أسماء علماء الذرة في العالم أمثال أستاذها «**أوبنهايمر**».

وفي العام ١٩٦٧ صدرت عدة أبحاث لها في كتب تعتمدها بعض الجامعات الأميركية في تدريس الفيزياء.

* * *

لم تتزوج العالمة. بقيت مترهبة في صومعة العلم. فهل لذلك أسباب شخصية؟ الذين عرفوها أيام الصبا الأول يقولون ان **سلوى** كانت منطوية على ذاتها، على خفر، ولا تتحدث في الأمور العاطفية.

لكنها أحبت الأطفال كثيراً. أطفال أختها «**مرسيل**» كما أطفال الصديقات. كانوا، بالنسبة إليها، متعة العين وفرح القلب. كذلك أحبت الناس الذين عرفتهم، ورافقوا خطاها. وأحبت الطبيعة فجعلت هوايتها غرس الأزهار والخضرة، وتسلق التلال وذرى الجبال، إلى جانب هواية الطبخ وجمع الطوابع.

وكان وقتها يتسع لأمور أخرى، غير العلم والهوايات، فنشرت ما يقارب الخمسة والعشرين بحثاً علمياً، في مواضيع اختصاصها، كما شاركت في تأسيس، أو إدارة عدة جمعيات ثقافية، ومؤسسات علمية، يتجاوز عددها الاثنتي عشرة مؤسسة محلية وعالمية. وهي التي سعت إلى إنشاء مجلس للأبحاث العلمية في لبنان، وكانت من المؤسسين ومن أبرز أعضائه.

* * *

أما بالنسبة الى المرأة، فقد شاءتها العالمة أن تقف على قدم المساواة مع الرجل في العلم كما في مجالات أخرى. وقد عبرت عن ذلك في شتى المناسبات، وفي محاضرات وخطب لها.

وأذكر، من مقابلة أجريتها معها لدى انتخابها رئيسة لكلية بيروت الجامعية، قولها: **إن المرأة لا تستخدم أكثر من ثلث الطاقة الفكرية التي أعطيت لها. ومن واجب المعاهد والجامعات تدريبها وتوجيهها، حتى يتم لها استخدام جل طاقاتها، وإنماء معظم مواهبها.**

وكانت بقولها هذا تعني المرأة العربية، إذ لم تأل جهداً في تشجيعها وحثها للمسير على درب العلوم الذي اعتبرته مجال تفوق للمرأة. وبالطبع كانت هي مثالاً لذلك التفوق، مثلما كانت قبلها

العالمة **ماري كوري** - الحائزة على جائزة نوبل مرتين - ثم ابنتها **ايرين كوري جوليو**، التي اقتفت خطى والديها، فانتزعت تلك الجائزة بالاشتراك مع زوجها **فريديريك**، وغيرهما كثيرات، من نساء تفوقن في الشرق والغرب، وحيثما سنحت الفرصة، واتيح المجال للتعلم.

من أوراق مكتوبة بخط يد سلوى نصار اقتطف هذا المقطع عن تصوراتها لوطنها:

**«أتصور لبنان عام ١٩٨٧ وفيه:**

**١ - لكل مدرسة مختبر ومكتبة.**

**٢ - متحف علمي شامل، يخصص منه جناح متسع المساحة، تام التجهيز الآلي، كمختبر مركزي.**

**٣ - معهد للأبحاث. فيه العلماء الأكفياء، ويشرف عليه المجلس الوطني للأبحاث العلمية...**

**إن التكهن بالأمور العلمية صعب جداً، لذا أجد نفسي مضطرة الى ان أشرك الاستنتاج بالتمني والرغبات.**

* * *

هل كان هذا برنامج شاءت **سلوى** أن تحققه؟ أم هو جواب عن سؤال صحفي؟ أم أنه مقدمة لإحدى محاضراتها؟ لا يمكن أن نعطي جواباً حازماً على أي من هذه التساؤلات. إنما الأكيد هو أن كلماتها تبقى مؤشراً نحو الخط الذي لم تحد عنه العالمة حتى في أحلامها، وهو خط التقدم العلمي لأبناء وطنها وبَنَاته، كما للإنسان في كل مكان.

* * *

والشعلة التي أنارتها أصابعها لا تزال مستمرة، فشعلة العلم لا تنطفئ. كذلك يستمر مع اسمها، دفق العطاء الذي يساعد على تحقيق الأحلام.

فقد كتبت **سلوى**، في وصيتها، تطلب أن توزع ثروتها الصغيرة على مساعدة المشاريع العلمية والتربوية، وقسمتها منحاً لكل من:

* **جمعية الإغاثة في الشوير.**
* **معهد اللاهوت في دير البلمند.**
* **إنشاء مجلس للدراسات اللبنانية، وسمت أعضاءه.**
* **منحة لطالبة في التربية.**
* **تعويضاتها من الكلية تنفق في إصلاح مداخل تلك الكلية.**

* * *

وقد أنشئت، بعد وفاتها، **مؤسسة سلوى نصار للدراسات اللبنانية** فتابعت المحاضرات والدراسات، ونشرت ثلاثة كتب الأول عن **مصادر الثقافة في لبنان**، صدر عام ١٩٦٩ والثاني عن **لبنان – ملتقى الحضارات** (١٩٧٠) والثالث عن **دور لبنان في العالم العربي** (١٩٧٣).

* * *

واقتطف بعض شهاداتٍ، من معاصريها، والذين رافقوها على درب العلم. فمن كلمة **ميخائيل نعيمه**:

**«.. كانت تحمل عقلاً كبيراً، وقلباً كبيراً، فما لبثت أن تفتحت عالمة لها شأنها في علم الفيزياء وعلم الذرة وذلك نادر بين النساء،**

وعلى الأخص في شرقنا العربي...»

ومن كلمة شارل مالك:

«أحبت الحقيقة المادية وطلبتها بالعقل إلى أقصى الأرض. أحبت زملاءها العلماء فناقشتهم في المجالس والمؤتمرات نداً إلى ند. أحبت الشباب فبذلت في تعليمهم وتثقيفهم ما وسع عقلها من علم ونور. أحبت لبنان إيماناً منها بأن الحرية والمحبة والإنسان هي كل شيء. أحبت الله ووثقت به لآخر لحظة من حياتها، ولم تقنط من رحمته فأسلمت له نفسها بطمأنينة وفرح...»

ومن خالدة سعيد: «... إنها من الأشخاص الأفذاذ الذين يصنعون أسطورتهم في الحياة. ولقد أصبحت أسطورة، في وعينا، وخصوصاً نحن النساء اللبنانيات، لأنها كانت رمزاً متعدد الوجوه لما نرجوه ونتطلع إليه...»

ومن رفيقة الدراسة وصديقة العمر نجلا عقراوي:

«.. كانت الرياضية اللامعة تلهو بحل المشاكل العويصة بسهولة تدفعنا الى التحلّق حولها في أوقات الفراغ طلباً للاستفادة والاستنارة. وكانت الممثلة البارعة على مسرح الكلية... وأشارت إليها الصحف يومذاك وتمنت لها مستقبلاً باهراً في هذا الفن الرفيع... وكانت، على قلة كلامها، ذات حسّ بالفكاهة مرهف...»

* * *

أما روز غريب فتقول فيها: «.. سلوى نصار لها بساطة بلدها، هدوء غابات الصنوبر وصلابة الصخور. أفكارها الرفيعة مستوحاة

**من شموخ تلال المتن، أرض منبتها. حياتها كانت قصيرة، إنما غنية بالعطاء، إذ استغلت كل دقيقة من دقائقها من أجل خدمة الإنسان...»**

وأختم بشهادة أختها **مرسيل فارس**: «**كانت العطاء والمحبة. عاشت للآخرين أكثر مما عاشت لنفسها. ولعلمها اعطت، لمحبيها، للأجيال الطالعة ولوطنها أعطت، من حشاشة القلب ونور العقل.**

**أما بالنسبة إليّ، فإن كل مالي، هو من فيض محبتها».**

وقُلّدت **الدكتورة نصار**:

* وسام الاستحقاق الذهبي من وزارة التربية.
* وسام اللبنانيات الجامعيات.
* وسام الأرز الذهبي.

---

- مقابلة مع شقيقتها السيدة مرسيل فارس.
- مقابلة مع كاتبة سيرتها السيدة نجلا عقراوي.
- رائدات - د. ماري صبري.

# زاهية أيوب

«يا بنيّ: خذ من حياتك الكثير، لأن عليك أن تعطي الأكثر...»

نبحث عنهم، وعنهن، في الدفاتر القديمة: وكلما تقدم بنا الزمن، نشعر بهول الفراغ.

الرواد والرائدات، الذين تصدوا للحياة، بكل ما لهم من وسائل، كي ينهضوا ببلادهم وأمتهم.

ويخرجوها من الظلام والجهل، الى نور المعرفة والانعتاق...

اولئك الرواد الأوائل، يسطعون في سماء الذاكرة كالنجوم الفريدة، ويزدادون تألقا ونضارة كلما تقدمنا خطوة في دروب هذا الزمن الرديء... نفتقدهم، نشتاق وجوههم - المنارات - في الليالي الدامسة... لكن الحقيقة لا تلبث ان تتفجر في الذاكرة وتطن مثل منبه الضمير: رحلوا... ابتعدوا، وأبقوا لنا ملامح ذكريات...

* * *

وهذه سيدة منهم.

رائدة من مطلع القرن، جاءت من سهول البقاع الخيرة، حاملة اغمار العطاء، ورائحة السنابل؛ ومندفعة، بكل الزخم والتوق، الى التجلي والرقي.

أخوها **نسيم**، الذي سهر على تربيتها، مع سائر الاخوة والاخوات، يشهد بأن **زاهية**، كانت تنفض يديها من المعجن، وتنظف ما علق من العجين بين اصابعها، وهي ترتدي «المريول» وترد المحفظة الى خصرها،

ثم تهرع كي لا تفوتها الحصة الاولى من الدروس...

* * *

والذي يسأل: ما الذي يجعل الفتاة البقاعية - ابنة نيحا - تحمل ذلك التوق والطموح الى العلم والمعرفة، وأمامها الطبيعة تفتح لها الكتب والدفاتر وتدعوها لتقرأ؟ وما الذي يجعلها تشيح بوجهها عن الكتاب المفتوح أمامها لتمضي في البحث عن المجهول، في كتب الفلسفة، والتربية، والتاريخ؟... الذي يسأل هذا السؤال يأتيه الجواب بسيطاً وعفويا:

- طبعا، انه الطموح. وطموح الانسان في الدرجة الاولى؛ فهو يعتبر ما في حوزته تحصيل حاصل، وتطلعه يبقى مشدودا الى المناطق المستحيلة.

* * *

**زاهية أيوب**... لم تبدل اسمها. من المهد الى اللحد، برغم مرورها، بضع سنوات، بتجربة الزواج. كان الاحتفاظ بالهوية الشخصية من بعض أسس نضالها، كي تؤكد بأن للمرأة شخصيتها، وكيانها، بمعزل عن كيان الرجل.

ولدت **زاهية** عام ١٩٠٧ في بلدة **نيحا - البقاع** - أبوها داود أيوب. أنشأ في بلدته مدرسة لتعليم الناشئة، وبنى كنيسة للعبادة. كان لا يفرق بين ايمانه بالله، وايمانه بقدرة الانسان على التطور والنمو. لكن هذا الوالد الذي حقق جزءا ضئيلا من احلامه، رحل عن الدنيا قبل ان يتم ما كانت تصبو اليه نفسه... وما تنشده الطموحات.

كان يقول: «**ان الانسان لا يقاس بما حققه من أعمال، بل بما كان يريد ان يحققه**».

وهذه الفلسفة، انتقلت منه الى أولاده، خصوصا الى زاهية، الرقم الرابع في تسلسل الولادات. فالعائلة مؤلفة من خمسة اخوة واختين، والقدر القاسي لم يلبث ان نغصها في عيشها حين حرمها عطف الاب والاولاد في طور البراعم... ولم تلبث الام ان لحقت به الى دار البقاء. وظل الاولاد، بلا معيل، كبيرهم يعتني بالاصغر منه...

وكان الاخ **نسيم** اكبر من زاهية، فأخذ على عاتقه امر العناية بأناقتها وقبل ان تذهب الى المدرسة كان يتأكد انها غسلت وجهها، ومشطت شعرها جيدا حتى انه كان يساعدها في ضفره ليبقى مرتبا، أطول فترة ممكنة، وهذا بالطبع، الى جانب مساعدتها في دروسها؛ فالفتاة ذكية، حساسة، وهي من الأوليات في صفها، والمعلمات يتوقعن لها مستقبلا مرموقا.

* * *

ولم تخيب **زاهية** تقدير مدرّساتها ظلت الطالبة الذكية المجدة، وبلغت صف البكالوريا، فرع الفلسفة، وتقدمت للامتحانات، ونجحت؛ كانت الفتاة الوحيدة بين ستين شابا. وسجلت اسمها في لائحة الريادة: انها أول لبنانية تحصل على تلك الشهادة.

وبالطبع، هذه ليست محطة، بل قاعدة انطلاق، فطالب العلم أيضا لا يشبع، والمجال مفتوح امامها لكي تتابع دراستها العليا.

فاختارت الحقوق. وكأنها بذلك الاختيار، تتابع تسطير المسيرة الشجاعة، كي تمهد السبيل، لمن يجئن بعدها.

وقبل ان نتابع تقدمها في المجال الجامعي، لا بد من العودة الى الخلفيات والدروب الاولى، على طريق العلم والمعرفة؛ فقد تتلمذت في مدرسة المعلم **بطرس مختارة المعلوف** - والد الاديب الراحل **رشدي المعلوف** وذلك في بلدة **عين القبو**. أما سر الانتقال من **نيحا** البقاعية الى تلك القرية في المتن الشمالي، فيكمن في صلة القربى التي تربطها بالشاعر المهجري المعروف **رشيد أيوب**، اذ ان عائلتها في الاصل من **بسكنتا**، وقد نزحت الى البقاع في مرحلة سابقة، واستقرت هناك.

لكن مدرسة المعلم معلوف ابتدائية وكان من الطبيعي، ان تنتقل الى مدرسة ثانوية، فاختارت كلية البعثة العلمانية الفرنسية، والتحقت بها عام ١٩٢٢، وفيها اتمت الدراسة الثانوية، ونالت الفلسفة، والتقت بطلاب وطالبات اصبحوا فيما بعد، من ابرز الشخصيات الادبية، والسياسية.

* * *

التحقت **زاهية** بجامعة القديس يوسف، في بيروت، حيث تابعت دراسة الحقوق، وحصلت على شهادة «ليسانس» او مجازة، أهلتها لأن تتسجل في نقابة المحامين. وكانت من اوليات النساء اللواتي تسجلن في النقابة. لكن ميولها الادبية ظلت تشدها الى اتجاه آخر، وهكذا تابعت دراسة الادب. ونالت شهادة «مجاز آداب».

انها الآن صبية، في اوج التألق، ذكية، طموحة وناجحة؛ وبين يديها شهادة تشد بها الى دروب القانون. واخرى تدفئ قلبها، وتثير عاطفتها، فأي العملين تختار؟... لم تتردد طويلا امام الاختيار فقد

تبعت نداء الهوى، وانصرفت عام ١٩٣٠ الى التدريس في الكلية العلمانية، وتدريس اللغة العربية وآدابها. وقد أكسبها تميزها ثقة المشرفين على المعهد، فطلب اليها ان تدير قسم الدروس العربية لفرع البنات في شارع عبد القادر. وقد مكثت في هذا المنصب ثلاثين سنة، وتتلمذت عليها مئات الطالبات، لا من لبنان وحسب، بل ومن سائر الدول العربية...

كان يمكن للسيدة ان تكتفي بمهمة التدريس، والادارة: لكنها ابنة زمن الريادة، وكل امرأة من بنات جيلها، تسعى، الى جانب عملها، (اذا كنت تعمل)، لتبقى متَّصِلَة بتيار التحرك السياسي.

كان ذلك الوقت بدء انتفاضة الحركات النسائية في لبنان والعالم العربي قاطبة. ولم تقف **زاهية** حيال هذه القضية مكتوفة اليدين، بل خاضت الصراع، منفردة، وعن طريق الجمعيات والمؤسسات، خصوصا تلك التي لها مساهمة في تأسيسها، والعمل فيها، ونذكر منها، **جمعية النهضة النسائية. الاتحاد النسائي. اتحاد الجامعيات اللبنانيات.** وقد مثلت هذه الجمعيات في المؤتمرات الدولية أكثر من مرة...

* * *

لكن الجانب النسائي لم يشغلها عن الاهتمام بالشؤون الادبية: وكان العمل الجماعي في اوائله...

وقد ولدت عام ١٩٣٣ **جمعية التضامن الادبي، وعصبة العمل القومي، وحزب الاستقلال الجمهوري.** وكانت زاهية من المؤسسين لهذه الجمعيات، كما انها كانت المرأة الوحيدة العاملة فيها. وقد أثرت

في كل منها، تأثيرا بالغا، ان في خطبها، (وكانت خطيبة من طراز رفيع) او عبر مقالاتها، ومحاضراتها...

* * *

لكن هذا كله، كان جزءا من نشاطها خارج البيت: أما في الداخل، فكانت تحمل مسؤولية الزوجة والام بكل ما فيها من عناء. وقد تزوجت زاهية في سن متأخرة، اذ كانت في التاسعة والثلاثين من عمرها، ورزقت ابنا وحيدا سمته عيسى. زوجها **الياس صقر** من بلدة **بتعبورة** - البقاعية، كان وجيها في بلدته، لكن المرأة التي عاشت حياتها خارج القيود التقليدية، لم تلبث ان اكتشفت الخطأ الذي حصل؛ ليس هناك تكافؤ بين الزوجين، وبقي ذلك سبب صراع بينهما، انتهى بالانفصال فالطلاق. وخرجت **زاهية** من الزواج، تداري رضوض العاطفة، وتحضن ولدها، وتحاول ان تسكب في كيانه، كل العاطفة والحنان؛ كان عيسى، ابنها الوحيد، املها الوحيد.

* * *

وقد كتبت له رسائلها والتوصيات: «**انت تعلم، انه كتب علي ان لا يكون لي شخص آخر اناديه بكلمة حبيبي، سواك**»...

اما وصيتها، بل وصاياها اليه، فبقيت مخطوطات تنتظر الطباعة: «**اياك يا بني والرضى بالدون، فعليك ان تطمح أبدا الى القمة، وتعمل باخلاص لما يوصلك اليها...**» و «**خذ من حياتك الكثير، لان عليك ان تعطي الاكثر**».

و «**يا بني، علمتني الحياة، واثبتت التجارب ان الانسان واسع الحيلة ساعة يريد اتيان الممنوع، فما من قوة في الوجود في امكانها**

**السهر عليه ومنعه من ارتكاب المحرمات اذا لم يكن له من ضميره رادع... هذا الضمير وحده، هو العين اليقظى التي لا تنام...»**

* * *

عام ١٩٦١ أسست زاهية مدرستها العلمانية المختلطة في بيروت، واطلقت عليها اسمها وهذه المدرسة خرجت طلابا وطالبات من لبنان وعدد من البلدان العربية. وكانت في عهد صاحبتها، ولا تزال، منهل الحس الوطني، والوعي، الى كونها منهلا للعلم والمعرفة، سائرة في هذا السبيل، حاملة اسم المرأة التي اعتبرت التربية رسالتها الاصلاحية الاولى.

* * *

تميل التربية الحديثة (في كثير من المعاهد الراقية، في لبنان والعالم). الى التركيز على العلم والمعرفة، والتقنية. وتبقي التوجيه الخلقي، والوطني والاجتماعي للبيت... ما كان ذلك شأن **زاهية أيوب** ومدرستها: فهي لم تفصل ابدا العلم عن الخلق، وعن المواطنية الصالحة. وفي هذا المجال، كانت المدرسة رسالتها الشخصية لوطنها ومجتمعها، او ذاتها الموسعة والمكبرة والمتشعبة، والمغروسة في اكثر من كيان.

* * *

اما شخصية زاهية فكانت مميزة بالانفة، والعطاء، والتضحية. لم تحب الظهور، وكانت تبتعد عن الدعاية الفارغة. وقد عملت كثيرا ولكن بصمت. وحين كانت تخرج عن صمتها، لتتحدث الى الآخرين، عبر محاضرة او خطبة، لم تقحم شخصها في مادة الكلام،

بل ظلت مختبئة خلف الكلمة، التي تطلقها رسولة هدى واصلاح.

بعد وفاتها، في الثاني من شهر حزيران، عام ١٩٨٠، كتب رفيق لها من أيام الدراسة في احدى الصحف يقول: «**كان على قسماتها دلائل نباهة، ولوامع نبوغ. تبوأت مكانا مرموقا بين الصفوة المختارة من الاتراب والاميز من الاقران...**»

و «**شاركت في النهضة العلمية والفكرية بروح طيبة وافكار ناضجة... قارعت الاستعمار، وساهمت في معركة الاستقلال**».

و «**قد اوتيت صفاء نفس، ونقاء قلب واعتبرت الانسان اخا الانسان: اما الايمان فهو ضمير ووجدان**».

* * *

وكان شعارها في الحياة: وداعة في الخلق بعزة وكرامة، شجاعة في الرأي من دون خوف او مراعاة، اداء الواجب على الوجه الاكمل والامثل.

بسبب ميلها الى البعد عن الضوضاء، رحلت بصمت، خصوصا وان رحيلها كان في زمن الحرب، حين أبصرت كل الافكار التي غرستها، والبذور التي تعهدتها بالتربية والاصلاح، تهوي الى القاع وكي تطفو، فوق الصفحة الخارجية، ثمار الحقد والتخريب والكراهية. فمن الطبيعي، ان تخترقها الخيبات، اختراق الرصاص الحارق، وقد اصابت منها القلب، الذي توقف عن الخفقان، قبل ان يبلغ رسالته الاخيرة.

* * *

لكنها تركت من اعمالها المكتوبة مؤلفها القيم «**الحلاج وفكرة الحلول في التصوف الاسلامي**»، و «**القضية الكبرى**» اي قضية فلسطين التي عملت الكثير من اجلها.

وكانت، قبيل وفاتها، قد انجزت كتابين، لا يزالان ينتظران الطباعة. وقد حصلت هذه المربية الرائدة، على أوسمة تقدير منها: **وسام المعارف الفرنسي**، وذلك تقديرا لتدريسها وادارتها قسم الدراسات العربية في المدرسة العلمانية الفرنسية. **ووسام المؤسسة الانسانية العالمية، ووسام الاستحقاق المذهب**، كما منحها رئيس الجمهورية **وسام الادباء** تقديرا لعطائها.

* * *

لا بد، في الختام، من تسجيل شهادات اخرى، في السيدة الرائدة، على لسان رفاق طريقها التربوي، ونضالها الوطني: **لقد كانت امرأة عاقلة، واعية تماما اين تضع قدمها، وكيف تصوغ كلماتها. هذا الى حدة في الذكاء، وتطلعات مستقبلية وبعد نظر. ومع كل التجديد والتغيير اللذين سعت وناضلت لبلوغهما، فانها لم تكن يوما الداعية المتطرفة، او المتهورة. ذلك انها كانت مؤمنة، بأن التقدم الحقيقي، هو الذي ترسى اسسه فوق ارضية الواقع، وفي منابع الايمان...**

---

- رسائل الى ولدي، تأليف زاهية أيوب.
- كتاب جمعية التضامن الأدبي والحركات الشعبية أيام الانتداب الفرنسي، تأليف جان سرور.
- حديث مع ابن أخيها وابنة اخيها.

# وداد المقدسي قرطاس

«يجب أن نربي الفتيات على الثقة... أن تكون لهن ثقة بأنفسهن».

عرفناها، مربية قديرة. ورائدة من رائدات نهضتنا الثقافية والنسائية؛ وانسانة عميقة الابعاد، شفافة الرؤى، تهتز جذورها لقضايا الانسان، في وطنها، كما في اي وطن آخر، يتعرض فيه هذا الانسان الى الظلم والقمع والارهاب والتعذيب.

كانت تقوم بأكثر من دور. وتشغل اكثر من وظيفة، وكل اعمالها تدور في فلك الانسان، مستقبلة، رقيه الفكري والروحي، وتأمين سلامه وحقه في العيش الكريم.

* * *

وحين اقترب من شخصيتها، في محاولة لرسم ابعادها، اراها تنزلق من بين انامليّ، مثلما للاطفال، وحدهم، المقدرة على الانزلاق، والهروب منا، ليتواروا، خلف عوالم طفولتهم، حيث يحتفظون بزوايا حميمة، لا يبلغها الاذى، ولا يسجل فوقها الزمن بصماته.

وأحاول ان اتجرد من تقدير شخصي، لتلك السيدة، ومن حب لها، متغلغل في حنايا نفسي، لاكتب سيرتها.

* * *

**وداد المقدسي قرطاس**، ابنة المعلم **جرجس الخوري المقدسي**، المربي الذي تتلمذ عليه مئات من رواد نهضتنا، أمها مريانا الخولي، سليلة عائلة عريقة في العلم والمعرفة.

ولدت وداد في هذه الاسرة البيروتية المتميزة بخدماتها للعلم والتربية، عام ١٩٠٧، وتابعت دراستها الابتدائية في معهد صغير انشأه «**الموسكوب**» (أي الروس الذين كانت لهم في لبنان وسوريا وفلسطين، معاهد ابتدائية وثانوية). لكن والدها، شاءها ان تدرس في معهد علماني، وهكذا انتقلت الى مدرسة المعلمة «ماتيلد بحمدوني» ثم الى المدرسة الاهلية وكانت تعرف بمدرسة ماري كساب حيث انهت دراستها الثانوية، وبدأت دراستها الجامعية في كلية بيروت الجامعية (الجونيور كولدج آنذاك)، ومنها انتقلت الى الجامعة الاميركية حيث نالت بكالوريوس آداب عام ١٩٣٠ .

وقبل ان تسافر لمتابعة دراستها في الخارج، شغلت منصب استاذة في دار المعلمات في بغداد مدَّة سنة، ثم كانت خطوتها التالية الى جامعة «ميشغن» في الولايات المتحدة الاميركية، حيث تخصصت في التاريخ والتربية، وحصلت على درجة ماجستير آداب عام ١٩٣٣ . وعادت، لتبدأ رسالتها التعليمية في المدرسة الاهلية، وقد عينت مديرة لهذه المدرسة عام ١٩٣٤ وبقيت في هذا المنصب اربعين سنة، اي حتى عام تقاعدها عام ١٩٧٤ .

* * *

أربعون سنة، في التربية، ومن موقع متميز، ان في مستواه، او في النظرة التي كانت تميز السيدة **وداد**، تلك النظرة المستقبلية المنفتحة، والتي لم توصد بابا في وجه رياح تهب من مصادر الحضارة والتقدم.

وكانت تناضل على خط آخر، بعد زواجها بالمهندس والصناعي المعروف اميل قرطاس عام ١٩٤٠ .

انجبت اربعة اولاد: مريم (زوجة الدكتور ادوار سعيد) الدكتور نديم، المهندس رمزي، والمهندس سامي. ولا ضرورة لذكر ما تتطلبه تربية عائلة، من بذل وتضحية، خصوصاً اذا كانت بعيدة الطموح، مثل غائلة الست وداد.

لكن الابعاد التربوية والثقافية لم تنحصر في ادارة مدرسة البنات الاهلية، ذات الاسم الطيب، والتي طبعت خريجاتها بطابع الوطنية والتحرر... فقد كانت السيدة **وداد** في الجذور التأسيسية للاكاديمية اللبنانية، وبقيت امينة سرها طوال اربعين عاما.

كما عملت عضوا مشرفا على مدرسة برمانا العالية سنين عدة، وعضوا في اللجنة المشرفة على المستشفى اللبناني للامراض العقلية، والعصبية، وعضوا مؤسسا وامينة سر المجلس الاهلي للتعليم الثانوي، وعضوا مؤسسا في مجلس امناء الدراسات الفلسطينية في بيروت وأمينة سر أصدقاء القدس في لبنان، ورئيسة لجنتها النسائية.

هذا الى جانب مساهمتها في عدد من الجمعيات الثقافية، والقاء المحاضرات في الجامعات، والندوات الادبية والعلمية.

ثمة خط آخر، آمنت الست وداد بانه مكمل ومتوافق مع خطها التربوي، وهو تأليف الكتب التربوية واذكر منها «**مناهل المقدسي**»، اثنين وعشرين كتيبا استندت فيها الى مجموعة من القصص التربوي كان قد جمعها والدها.

ثم «**اناشيد الاهلية**» في ثلاثة اجزاء، وهي أغان وطنية للمدارس الثانوية، ومجموعة مذكرات موجهة الى الاحداث عنوانها: «**دنيا أحببتها**» وفيها تسلط الأضواء على مواقف وشخصيات، عرفتها، أو

أثرت في حياتها، أو خبرات، شعرت بأنه من واجبها ان تسجلها، وتنقلها الى الجيل الجديد، خوفا عليها من الضياع النهائي.

ولها تحت الطبع مجموعة خطب ومقالات ومذكرات باللغة الانكليزية، تصور فيها تأثرها بالأحداث بين العام ١٩١٦ و ١٩٧٤ .

* * *

بأية سرعة يخط القلم حكاية عمر حافل بالعطاء!

بأية سهولة، ترفع الكلمات رؤوسها لتشرح المواقف!

وعطاؤها، كان من النوع الذي لا يطلب ايَّ شيء مقابل، أيَّ ثمن، بل يتدفق، مثلما يتدفق النور، أو ينهمر الغيث، ويقف في وحشة الوجود، مثلما تقف النخلة وسط قحط الصحراء، دانية القطوف، غير مبالية باليد التي تجني.

أم انها كانت تبالي؟

لست أدري!

تلك السيدة، منذ عرفتها، كان بابها مشرعا للجميع، لاساتذة يحملون مظالمهم اليها، لاهل يشكون صعوبة وعدم تفاهم مع الأجيال الجديدة، وللطالبات... على الاخص للطالبات، يأتين اليها، بلا خشية أو خجل، اذ فوق وجهها، كن يقرأن رموز المحبة، التسامح، والفهم العميق. وفوق وجهها، (الذي حافظ على نضارة روحية له، حتى الرمق الاخير) كانوا يقرأون الامومة الحقيقية، والتي تتوازى فيها كفتا العقل والعاطفة. لتدفعا الشخصية اليافعة فوق طريق النجاح، والاستقرار...

كانت الست وداد، في أوج التألق والعطاء، حين قدر لي ان اتعرف

عليها، وكنت لا ازال طالبة، بل كنت أبحث عن مقعد لي، بين طلاب السنة الجامعية الاولى، وعن مكان، أسند اليه رأسي، في نهاية النهار.

وقد كتبت أصف هذا المنعطف القدري في حياتي، بعد وفاتها، عام ١٩٧٩ .

واقتطف فقرة من ذلك المقال، أقدمها صورة صادقة عن شخصية هذه السيدة:

**«دلوني على مكتبها: يقوم في زاوية هادئة، في الطبقة الارضية، من بناء عتيق، بعتق بيروت، يوصل اليه طريق ضيق، يمر ببواسق الاشجار، وينتهي بباب خشبي تأكل طلاؤه... لا تحتاج الى ان تطرق الباب... يبقى مشرعا في كل الفصول... استقبلتني سيدة جليلة الطلعة، تخفي هيبتها وحزمها، وراء ابتسامة، تفتح للغرباء كل الابواب. لم تكن هي الرئيسة، بل أختها ومساعدتها في الادارة الآنسة «سلمى المقدسي». وأسألها عن الست وداد: فتتأملني لحظات، ثم تستدير وتتقدم أمامي. تتجه الى باب آخر، فزاروب ضيق، قبل أن تلج الباب العريض: وتشير الي لادخل:**

**– تفضلي... الست وداد في الداخل.**

**«الست وداد»... هذا أهم ما أبصرته في تلك الغرفة المظللة بالأخيلة، والمجلدات، والخزائن العتيقة، والأطر الخشبية الست وداد، خلف نظارتين كلاسيكيتين، وكدسة كتب، واوراق.. ومكتب عريض. خرجت من خلف المكتب، وتقدمت باتجاهي، وأنا جامدة في مكاني، تحاول عيناي ان ترشفا، دفعة واحدة، كلما تقعان عليه.**

**امرأة في منتصف العمر، تسبقها اليك بسمتها وعطر نقي، يهف من الثوب الابيض البسيط، والوجه الخالي من أي مسحوق.**

**- الست وداد؟...**

**تسألها عيناي.**

**ولا تكف عيناها عن الابتسام.**

**تومئ الى مقعد قريب:**

**- تفضلي واجلسي. ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟ - الكثير، يا ست وداد... الكثير. العبارة ترددت بين أضلعي، ولم أترجمها الى كلمات. قلت بدلا عنها:**

**- أنا تلميذة. هذا العام أدخل الجامعة، واني أبحث عن عمل لاتمكن من اعالة نفسي...».**

* * *

لا لزوم لان اذكر المزيد عن تلك المقابلة المختصرة، والتي شرعت لي بابا واسعا، لا على الدراسة وحسب، بل على المستقبل، اذ اتاحت لي الفرصة، حين كنت في أمس الحاجة اليها.

واني لا أسجلها هنا، لاتحدث عن حدث شخصي، بقدر ما هي نموذج للطريقة التي كانت تتعامل بها **الست وداد**، مع عالمها. فقد اكتشفت، بعدما صرت من أهل «المدرسة الأهلية» أن الباب لا يوصد في وجه أحد من الطارقين. وأن العديد، من الطالبات، تمكن من متابعة علومهن الثانوية او الجامعية، بمساعدة من هذا النوع.

* * *

لكن الذي يميّز الست وداد عن غيرها من المربيات، هو ذلك الايمان العميق، بالانسان، ومنذ ان يكون في بدء الطريق.

وكان لها ايمان قوي بالمرأة، بامكانات لها، كامنة، نتيجة ضغط البيئة والكبت الفكري والعاطفي... لذا، جعلت مدرستها منهلا للتعليم، ولاسلوب وفلسفة في الحياة، تقوم على الوطنية، المرتبطة بالجذور العميقة، والاصيلة، ونبذ التفرقة على اي اساس من أسس التعصب العنصري الجنسي، أو الطائفي، ثم الحرية، تلك الحرية المسؤولة والتي تعطي الفتاة القوة لان تحلق من دون ان يعيقها حاجز او يحدها جدار.

**«يجب ان نربي الفتيات على الثقة... ان تكون لهن ثقة بانفسهن، من اهم العوامل التربوية»...**

عبارة سمعتها عشرات المرات، تتردد في احاديث خاصة لها او محاضرات... و**«علينا ان نربي طالباتنا على الايمان بالله، وبالمبادئ الوطنية، والقيم الانسانية»**.

وايمانا منها بتلك القيم، أبقت باب المعهد مفتوحاً أمام الشخصيات العالمية، التي كانت تزور بيروت، وكانت الصلة مع تلك الشخصيات، تتعدى الرئيسة الى اصغر الطالبات، وذلك عن طريق دعوة الشخصية الهامة الى منبر المحاضرات في الاهلية.

واذكر من بين الشخصيات التي دعيت خلال عملي في المعهد، **«هيلين كيلر»** أو اعجوبة القرن العشرين، و**«فيجايا لاكشي باندیت»** شقيقة الرئيس نهرو - وهي اول امرأة ترئس هيئة الامم.

كما كان يمر فوق ذلك المنبر، الصغير - الكبير، كل من يثير

الاهتمام بعمل ميزته، وسلطت عليه الاضواء.

وكانت تلك النافذة العريضة، التي شرعتها المربية الكبيرة، امام الطالبات ليشرفن منها على العالم، فلا تبقى ثقافتهن منحصرة بين دفتي كتاب.

هذا الى جانب نشاطات متعددة، كانت تلون الايام المدرسية، وتمسح عن وجهها الرتابة والضجر، لتغرس الفرح، وتكتشف المواهب الخاصة، والتي تحتاج الى مساحة خارج حدود الصف، والدفتر.

* * *

وتردني شقيقتها، ورفيقتها المخلصة، على دروب التربية، **الآنسة سلمى المقدسي**، الى طفولة **وداد** لتشير الى اهمية التربية الاولى والبيئة، في التأثير على حياتها العملية: فوداد الصغيرة كانت حارة حادة الطبع، شديدة الحماسة، للطبيعة كما للانسان. كانت تدعو رفيقاتها، واخواتها الى مشاهدة غروب الشمس، كما لو انها تدعوهم الى حفلة نادرة. وكانت عيناها تدمعان، حين تبصر الاطفال الفقراء، يبيعون العلكة، ليكسبوا ثمن اللقمة. وحين بلغت المرحلة الثانوية لم تكتف بالوقوف عند حد الشعور معهم، بل خرجت الى العمل، في مدارس ليلية اهتمت بتعليمهم...

وكانت لا تزال طفلة حين اصدر «بلفور» وعده المشؤوم، فكتبت رسالة الى ملك الانكليز، تحتج فيها على هذا الوعد.

وأبدت اهتماما خاصا بالحركة الكشفية التي اعتبرتها خطوة مهمة، في طريق التربية.

وباختصار، تقول سلمى: «**ان وداد احبت الانسان، والطبيعة..**

**وآمنت بالله، وبكل ما اعطانا.. ولكنها، عندما وقعت الحرب اللبنانية، تلقت الصدمة العنيفة، خصوصا وهي تبصر، كل ما عملت له، في حياتها، من بناء تربوي، وحضاري، ووطني، ينهار أمام سمعها وبصرها، من دون ان يكون لها القدرة على تلافي الانهيار... وقد سمعتها، مرة تردد: «هذه الحرب، جعلتني افقد ايماني»..**

* * *

وأنا اقول:

هذه الحرب اللعينة، ربما تمكنت من قتل الجسد... لكن الروح، والفكرة، التي هي جوهر تلك السيدة، من الصعب قتلها... اذ انها، مثل الزوايا الحميمة، في عوالم الطفولة، يستحيل ان ينالها أذى...

---

- دنيا أحببتها - ذكريات وداد قرطاس - المؤسسة الأهلية للنشر ١٩٦٢ .
- مقابلات خاصة معها.
- مقابلة مع شقيقتها الآنسة سلمى المقدسي.
- كتاب ذكريات - ١٩١٧ - ١٩٧٧ .

# نجلاء صعب

«حسبنا من هذه الحياة الدنيا، إن استطعنا، أن ننير سبيل تائه أو حيران...»

جاءت في عصر التحدي.

وارست قواعد عملها، في حين كانت المرأة تتهجأ اولى الخطوات التي دفعتها على سبيل النضال الاجتماعي والسياسي.

وقد ساهمت عوامل عديدة في تكوين شخصية هذه المرأة الهادئة المميزة بالذكاء الفطري، ودفع من هم على صلة بها، الى العمل الدؤوب بتفاؤل وصبر وعناد.

* * *

## نجلا صعب.

ابنة القاضي **محمد زين الدين**. امها **اميرة**، ابنة الدكتور **اسعد سليم** احد اوائل متخرجي الجامعة الاميركية في بيروت. مولودة في بلدة عين قني، قضاء الشوف، عام ١٩٠٨ .

تلقت علومها الاولى في البيت، ثم انتقلت الى المدرسة الاميركية، في بيروت، فالى معهد راهبات مار يوسف الظهور، لدراسة اللغة الفرنسية.

كان والدها يشجعها على متابعة دراستها، اسوة بأخيها **فريد** الذي اصبح فيما بعد سفير سوريا في الامم المتحدة.

وامها كانت امرأة واعية، منفتحة الذهن على القضايا العامة سياسية كانت ام اجتماعية، وقد نقلت هذه الروح الى ابنتها باكرا جدا.

ففي العام ١٩١٥ نُفي القاضي **زين الدين** الى تركيا، بأمر من الحاكم العثماني، وذلك بسبب مناهضته السلطة الحاكمة، وعدم انضوائه تحت لوائها. وخيم الحزن على جو العائلة، لكن الزوجة الحكيمة اغتنمت فرصة زيارة الحاكم الى بلدتها، فلقنت ابنتها **نجلا** كلمة، ودعتها الى القائها في حضرته. ووقفت الطفلة ابنة السنوات السبع، امام **جمال باشا** والقت الكلمة، بجرأة، وحماسة. وبلغت الرسالة غايتها. وبعد فترة قصيرة، عاد الأب الى عائلته.

* * *

ولم تنس نجلا تلك المواجهة. بل ظلت تعيش في ضميرها. وتحولت فيما بعد، الى اكثر من وقفة في وجوه من حلّوا مكان العثمانيين في حكم وطنها.

واذ ارجئ الكلام على هذا النشاط النضالي قليلا، فلا يسعني الا ان اتوغل اعمق في حياة هذه السيدة، كي ابرز التجارب التي كانت وراء مسيرتها النضالية، في مرحلة تفتح الوعي العام، إن على الصعيد الاجتماعي (من خلال المجلس النسائي اللبناني) او على الصعيد الانساني (بواسطة مؤسسة الصليب الاحمر) او حتى على صعيد النوعية السياسية.

* * *

لم تتابع **نجلا** تحصيلا جامعيا، انما العلم الذي توفر لها، الى جانب الوعي الذي جنته من بيئتها، ساعداها على تبني خلفية صحيحة لمسيرتها، وقاعدة نضالية صلبة. ثم جاء العنصر الثالث، والأهم، وهو زواجها برجل مؤمن بحق المرأة، وحريتها، ومشاركتها الرجل في كل

مجال. فقد تزوجت نجلا عام ١٩٢٥ الشاب المثقف الوسيم، وابن الاسرة المرموقة، **سليم صعب**. وباركت العائلة هذا الزواج، وكان حقا زواجا مباركا، أثمر خمسة اولاد ابنتين وثلاثة بنين، تخرجوا جميعهم من الجامعات وشقوا لهم سبلا متقدمة في الحياة، جعلتهم في مراكز مرموقة، يتابعون منها الرسالة التي حملتها الام المناضلة.

* * *

ورفقة الزوج لم تقتصر على البيت والعائلة، بل كان معها في كل خطوة يساندها، يشجعها ويمدها بالعون ويتطلع، مثلها، الى يوم يحل فيه النور مكان الظلام، والعدل مكان الظلم في كل شبر من مساحة الوطن.

وكتبت **نجلا** في ذلك تقول: «**كان زوجي مساعدي الاكبر في نشاطي وحياتي الاجتماعية. لقد ساندني، خصوصا عندما كنت اواجه التقاليد المتحجرة**».

* * *

انخرطت **نجلا** في العمل الاجتماعي ابتداء من العام ١٩٣٥، حين دخلت «الاتحاد النسائي اللبناني، ممثلة نساء متخرجي الجامعة الاميركية. ثم اسست مع بعض السيدات، «**بيت اليتيم**» كما عملت كعضو مشارك في عدة جمعيات ترعى الطفولة، والصحة العامة.

ولم تكتف بذلك، بل انطلقت تعمل في قضايا اعم، **كقضية حقوق المرأة؛ وشرعة حقوق الانسان**. وفي العام ١٩٣٩ انتخبت اول رئيسة للهيأة النسائية. اي اول تجمع نسائي عام. وبعد سنة من هذا التاريخ انتخبت رئيسة للاتحاد النسائي العربي، وذلك لمدة ثلاث سنين.

ومن هنا، بدأت النقلة التالية خارج حدود الوطن، ومشاركة النساء العربيات في النضال العام وقد لعب الاتحاد دورا كبيرا واساسيا في توعية المرأة الى اهمية وجودها، وما ينتظرها من مهمات.

* * *

من مركزها القوي هذا، انطلقت **نجلا** لتمارس نشاطا بناء وطويل النفس.

ومن اهم ما يذكر لها في تلك المرحلة، الاستدعاء الذي وجهته الى رئيس الدولة انذاك، الدكتور ايوب ثابت، وفيه تطالب بالمساواة بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية.

ثم جاء العام ١٩٤٣ وحدثت الانتفاضة، التي اخرجت اللبنانيات، لاول مرة، ليقلن كلمتهن في سياسة البلاد، ويسجلن موقفا حيال ما يجري، ويطالبن بالاستقلال.

وعُهد الى نجلا ان تقود الحركة النسائية الاستقلالية المساندة للرجل، فنظمت مع **ايفا مالك** والدكتورة **جمال كرم حرفوش** مظاهرات سلمية لهذه الغاية. كما بعثت برقيات الى الملوك ورؤساء الجمهوريات، وذلك خلال فترة تعليق الدستور المفروضة من الانتداب، ثم دعت الى اضراب دام قرابة اسبوعين.

ان تلك الحركة التي جمعت النساء بحماسة واخلاص. كانت اقوى الروابط التي شدت المرأة الى المرأة، وجعلتها تدرك اهمية توحيد الرأي، والعمل مع الرجل في القضايا الوطنية.

وقد سجلت تلك الوقفة العفوية والشجاعة، اثرها الطيب في النفوس، وظلت راسخة في نفس السيدة **نجلا**، تتذكرها، كلما ذُكر الاستقلال.

وانقل من حديث اجريته معها قبل عشرين عاما تقريبا، وذلك لمناسبة ذكرى الاستقلال، هذا الكلام:

**«استيقظ اللبنانيون صبيحة الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٩٤٣ ليجدوا رئيسهم وحكومتهم ورجال الحكم فيها قد اختفوا. وقامت انتفاضة شاركت فيها المرأة، بل كانت منها في المقدمة. وكانت الحركة النسائية انذاك منضوية تحت لواء الاتحاد النسائي اللبناني، (ورئيسته نجلا بالذات).**

**وفي الصباح الباكر، تجمعت النساء في دار زلفا شمعون كما عقد اجتماع آخر في دار لور الخوري، انتخبت خلاله (السيدة صعب) لتكون على رأس الحركة، كما انتخبت الدكتورة حرفوش والسيدة مالك لمركز سكرتيرة ومسجلة وقائع. وتحرك الموكب في اقوى تظاهرة شعبية عرفها لبنان. وكانت نجلا حاملا في الشهر السابع، الا ان ذلك لم يمنعها من الاندفاع بحماسة في مسيرة انقاذ الوطن، كما ان الرصاص الذي اطلقه الجندي السينغالي بين قدميها، لم يثنها عن عزمها وتصميمها. وهكذا برهنت المرأة انها مستعدة لكل تضحية، حين يكون الوطن مهددا في كيانه ومصيره»...**

وقد ذكرت لي اسماء بعض النساء المشاركات في تلك التظاهرة ومنهن السيدات: **فائزة الصلح، ابتهاج قدورة، نازك العابد بيهم، نجلا كفوري، عفيفة مجدلاني، جانيت تادرس، شفيقة دياب، افلين بسترس، شفيقة سلام، سلمى غزاوي، ليندا سرسق وآنا تابت.** واسمع صوتها من ذلك البعد الزمني يتابع بصفاء وهدوء:

**«كنا نساء لهن كرامة وشجاعة وعزة نفس، وقد جمعتنا الكارثة، فتلاشت الفروقات الطائفية والطبقية، وبتنا نعمل كفرد واحد لانقاذ لبنان».**

* * *

المهم ان هذه التظاهرة تركت اثرا بالغا في النتائج التي تمخضت عنها كما اكتشفت النساء ان لهن مقدرة هائلة اذا التقين ووحدن الرأي من اجل غاية سامية.

وقد سجلت **ليلي بدر** وقائع تلك المرحلة بموضوعية ودقة، وبفضل اتقانها فن الاختزال، حفظت وثيقة تاريخية للمواقف التي وقفتها سيدات الاستقلال.

ونالت السيدة **صعب** تقديرا كبيرا من المواطنين كما انعمت عليها الدولة، بعد انقضاء سنة على هذا التاريخ، بوسام الجهاد الوطني...

* * *

ونتابع سيرة النضال معها: ففي العام ١٩٤٤ عقد المؤتمر النسائي العربي العام في القاهرة، بدعوة من الزعيمة **هدى شعراوي**، ومثلت لبنان فيه السيدة **صعب**، وانتخبت في السنة التالية امينة سر اللجنة المركزية لمؤسسة الصليب الاحمر اللبناني، وهي احدى مؤسساته، كما اعطته الكثير من وقتها وجهدها، وبلغت بها حماستها حدا دفعها الى الانكباب على دراسة كل ما يتعلق بالمؤسسة الانسانية، واتفاقيات **جنيف** ووضعت كتابا في هذا الموضوع، عام ١٩٦٦، بناء على طلب من القيادة العليا للجيش اللبناني. وكانت تلقي

محاضرات، في صفوف الضباط في الكلية الحربية، حول ماهية الصليب الاحمر ودوره في السلم والحرب...

* * *

عام ١٩٤٦ منحت نجلا وسام الارز من رتبة فارس، تقديرا لنشاطها البناء وجهودها الدائمة التجدد والتقدم... وبعد سنتين من هذا التاريخ كانت تمثل لبنان في لجنة حقوق المرأة التابعة للامم المتحدة، ثم عينت عضوا في لجنة الاونسكو الوطنية، هذا الى جانب مؤتمرات كانت تحضرها، ممثلة المرأة اللبنانية عن جدارة واستحقاق.

وقد منحت، العام ١٩٦٤، وسام الانسانية الفرنسي؛ ثم انتخبت، في العام ١٩٦٦، رئيسة للمجلس النسائي اللبناني، وكان يضم في حينه، ستا وسبعين جمعية، وبقيت في مركز الرئاسة حتى تاريخ وفاتها عام ١٩٧١ .

* * *

كانت **نجلا** في اوج النشاط والحركة، حين فاجأتها نوبة قلبية عجز الطب عن انقاذها منها. وجرى لها مأتم حافل، شاركت فيه جميع الهيئات النسائية والوطنية. واقيم لها حفل تأبيني في قاعة الاونيسكو، تكلم فيها عدد من الادباء. ورثاها الشاعر **عمر ابو ريشة** في محطات ثلاث، هي محطات لقائه بها:

فاللقاء الاول، كان في إثر التظاهرة الاستقلالية المشهورة وذكر قوله لها في حينه:

**– ربما انت، يا سيدتي، المرأة الاولى التي تقدمت الرجال في عصف الرياح، نحو مقارعة الباطل في خوض المعركة.**

فردّت بتواضع:

**– كلا لي اخوات كثيرات عبر التاريخ، اذكر منهن: ليلى التغلبية، الحرقاء بنت النعمان، أسماء اخت المنذر ابن الريان وكثيرات من اترابهن، يوم ثرن على ازواجهن، واقسمن على الا يرجعن اليهم الا اذا نهضوا لمقاتلة الاعداء كي يحرروا انفسهم من قيود الذل والهوان. وهب الرجال وكانت معركة ذي قار التي انتصر فيها العرب.**

وقال الشاعر:

**– ربما تتساءلين: اي فتاة كنت من بين هؤلاء؟...**

وروى **ابو ريشة** انه التقاها للمرة الثانية في الهند، خلال مؤتمر للصليب الـ حمر و«**كانت موضع تقدير واعجاب الجميع لما امتازت به من صدق البيان، ونبل الغاية**».

وفي المرة الثالثة التقاها في **بيروت** وكان كما جاء في وصفه الشعري:

**«شبح لا ظل له فوق الارض... في الهدأة من صلف الدنيا، يتساءل بعضي عن بعضي فأغض... واختصر الايام وامسك بالريح وامضي»**

قالت له:

**– هون عليك، حسبنا، من هذه الحياة الدنيا، ان استطعنا ان ننير سبيل تائه او حيران. ان نكون شمعة في الارض تحترق لا نجمة في السماء تحرق...**

* * *

هذا بعض ما جاء في كلمة **ابو ريشة** اوردته ليعكس واحدة من صور التواضع، والمحبة والتفاؤل والايمان.

والسيدة التي غابت عن مسرح الاحداث، وفارقت نشاطاتها لا تزال مستمرة في المجتمع عبر عملين يحملان اسمها للاجيال الطالعة:

العمل الاول تربوي، تتبناه عائلتها؛ فقد رصدت، على اثر وفاتها، مبلغا من المال اودعته صندوق الصليب الاحمر وينفق ريعه على تعليم طالب في حقل التمريض، وبما ان المبلغ يتضاعف كل سنة، فقد اصبح الطلاب المستفيدون منه سنويا ستة طلاب.

كذلك قدمت العائلة، بناء على تمنيها مبلغا من المال خصص لانشاء مكتبة، ميزتها انها تضم كتبا نسائية، اما بأقلام نساء او كتبت عن مواضيع لها علاقة بالمرأة. وهي المكتبة الوحيدة من هذا النوع، وقد اشرفت على تنسيقها ابنتها سامية المختصة بعلم فن المكتبات ومركز هذه المكتبة في مقر المجلس النسائي اللبناني.

**نجلا صعب** صفحة مشرقة في تاريخ النهضة النسائية في لبنان. قالت فيها رفيقتها في النضال **ابتهاج قدورة**:

**«ان عملك اثبت ان في امكان المرأة ان تكون في آن واحد الزوجة الفاضلة الحكيمة، والام الرؤوم والابنة البارة لوطن عزيز وقوم كريم... برهنت على ان للمرأة وعيا قوميا واشتراكا فعليا في بناء مجد الوطن».**

اما رفيقتها الثانية **الكسندرة عيسى الخوري** فكتبت في معرض الكلام عنها:

«ابنة بارة، نجلا، زوجة وام مثالية، وربة منزل جذابة، رائدة شجاعة وصديقة لا مثيل لها.. دائمة التفكير في غيرها، ناسية نفسها ابداً...»

---

- مقابلات مع السيدة نجلا صعب.
- مقابلة مع ابنتها سامية صعب.

# روز غريب

«لا يسعني إلاّ ان أعدّد صفاتٍ بارزة لها، منها: أمانة مطلقة لا تساوم. تواضع الى حدّ إنكار الذات عقل علمي مشعّ...»

تقف روز غريّب على مفترق طرقنا الحضارية، علامة مميزة وشخصية متفردة؛ فهي من جيل الريادة الاول، وفي عدة مجالات، الا انها لم تتوقف عن العطاء، حتى هذا التاريخ. وعطاؤها يزداد تألقا وصفاء، ولا يتأثر بمرور الزمن، مما يجعلنا نتساءل عن سرّها، ومصدر الطاقة التي تمدها بهذا النشاط المبدع، وبتلك القدرة على الاحتفاظ بصفاء الرؤية، وبالحكمة والموضوعية، في عصر اختلطت فيه القيم، واختلّت الموازين، وغلّفت الابصار والبصائر، غشاوات التضليل والتمويه.

* * *

ولدت **روز** في بلدة الدامور بتاريخ ١٨ كانون الثاني، عام ١٩٠٩ . ابوها **سليم غريب**، كان ملاّكا صغيرا، تحول الى التجارة بعدما انهارت صناعة الحرير. وقد اقتصرت دراسته على المرحلة الابتدائية. وامها **حنينه عون** من الدامور كذلك، ومع انها لم تتخطّ مرحلة الدراسة الابتدائية، الا انها كانت مولعة بالمطالعة، محبة للكتب. وغرست هذا الولع في نفوس اولادها: **روز** واخويها **ميشال وانطوان**، وذلك مذ كانوا في مرحلة الطفولة.

* * *

بدأت **روز** دراستها الاولى في معهد للراهبات. وفي العام ١٩٢٣

قررت العائلة ان ترسلها الى المدرسة الاميركية في صيدا، لتتابع الدراسة العليا. واعتبرت تلك الخطوة غير عادية، بل في غاية الجرأة. وقد تخرجت في شهر حزيران من العام ١٩٢٥، حاملة الشهادة الثانوية، التي تؤهلها لتعمل في حقل التدريس.

وبالفعل، عُينت مدرّسة ومديرة لمدرسة الدامور الابتدائية حال عودتها الى البلدة. لكنها لم تلبث ان تخلّت عن عملها هذا، وانتقلت الى بيروت، حيث يمكنها تحقيق طموحها العلمي في مدى ارحب. وأنفقت السنتين التاليتين في التدريس الخاص.

كانت نسبة الفتيات المتعلمات ضئيلة جدا. والمعاهد تبحث عن مدرّسات قديرات. وتلقّت روز دعوة من مديرة مدرسة صيدا، عام ١٩٢٩، لتلتحق بالمعهد كمدرّسة. فلبّت تلك الدعوة، وانفقت سنتين بين العمل في التدريس، وتعلّم فنّ الاختزال والضرب على الآلة الكاتبة، في محاولة منها لدخول عالم التجارة والاعمال.

لكن توقها الى الاستزادة من العلم والمعرفة، كان يفوق تفكيرها العملي، وبعدما قضت خمس سنين في التدريس، عادت تحنّ الى الجامعة، وتسجلت طالبة سنة ثانية في **كلية بيروت** وذلك في خريف ١٩٣١، وبعدما اجتازت امتحانا اعفاها من مواد السنة الجامعية الاولى، خصوصا وانه كانت لها خبرة ممتازة في التعليم.

* * *

الحياة الجديدة تختلف عن كل ما خبرته في السابق، هنا، التقت نخبة الطالبات من لبنان والبلاد العربية. وكنّ فتيات طامحات، اتيحت لهن فرصة ذهبية لدخول اول كلية للفتيات في العالم العربي،

وهن مستعدات لاغتنام تلك الفرصة. وسرعان ما اندمجت روز في جو الطالبات الرائدات. وانطلقت معهن في نشاط ثقافي عبر نادي الادب العربي، بعدما انتخبت رئيسة له، بفضل موهبتها الادبية، فكانت تساهم في تحرير النشرات الادبية، وتكتب مسرحيات تقدّم على مسرح الكلية. ولا شك في ان هذا عمل ريادي. وكان حقل تجربتها الاول في التأليف المسرحي. كذلك اهتمت بالعمل الاجتماعي خارج الكلية، فشاركت في مخيمات صيفية، كانت تقام آنذاك، في القرى الريفية النائية. وهنا بدأت تؤلف مسرحيات للاولاد، وضعت لها اغنيات، مع الموسيقى، ايمانا منها بالتعليم عن طريق الترفيه الفكري. وبفضل احتكاكها المباشر بالاطفال، لمست ما لهذا الوجهه الادبي من اهمية تثقيفية بناءة، فتابعت خطه، واعطت آثارا فنية ادبية مميزة.

* * *

وفي العام ١٩٣٢ تخرجت من الكلية بتفوق، حاملة اسمى رموز التقدير والاعتراف بذكائها، اذ حصلت على منحتي الكأس والشعلة، وهما ارفع جائزتين، وقلما حصلت عليهما طالبة من قبل.

تسجّل السيدة **نجلاء طنوس عقراوي**، احدى زميلاتها من تلك المرحلة، شهادة عليها فتقول: «**كان لي حظ العمل مع الآنسة غريّب في النادي العربي. قمنا بنشاطات ممتعة باشرافها. كانت هناك المباريات الخطابية، المسرحيات، وندوات المناقشة. وحين اعود بالذاكرة الى تلك الايام، لا يسعني الا ان اعدد بعض صفات بارزة لها، منها: امانة مطلقة لا تساوم، تواضع الى حد انكار الذات،**

**عقل مشعّ وعالمي، حصد جميع المنح والجوائز العلمية، من دون ان تبدي صاحبته اثرا للاعتزاز او الكبرياء. واذا اضفنا الى ذلك كله، حبنا اياها، من دون شعور بالغيرة، بفضل خفرها وتهذيبها، ندرك اية شخصية متفردة هي...».**

* * *

المنحة درجة جديدة على سلم الصعود، وقد ساعدتها كي تدخل الجامعة الاميركية، وتتابع دراستها، وكانت تنوي التخصص في علم الأحياء (بيولوجي) لكن مديرة الكلية، والتي رافقت نشاطها عن كثب، نصحتها بأن تمضي في التخصص باللغة العربية وآدابها: «**اني ارى مستقبلا عظيما لهذا التخصص، وهناك حاجة قصوى الى أساتذة اللغة العربية**».

واخذت **روز** بالنصيحة، فانصرفت الى دراسة اللغة العربية، على اساتذة كبار، سرعان ما لمسوا تفوقها، وقدروا موهبتها الخلاقة، خصوصا في مجال الكتابة. ويذكر احد اساتذتها انه كان يجد صعوبة في تقييم اعمالها.

وفي حزيران، من العام ١٩٣٤، تخرجت بدرجة بكالوريوس آداب، بتفوق باهر، مسجلة رقما قياسيا لم يبلغه طالب قبلها...

* * *

مدرستها في صيدا تنتظرها. ومن جديد تأتيها دعوة الرئيسة، كي تتسلم ادارة الدروس العربية، فتقبل بلا تردد. وعملت بكل جهدها، لترفع مستوى التعليم العربي في المعهد. وبعد سنوات، تلقت

دعوة جديدة، هذه المرة من الخارج، ومن وزارة التربية العراقية، التي ارادتها ان تلتحق بمعهد ثانوي للفتيات في مدينة **الموصل**.

وجدت في الباب الجديد، الذي انفتح امامها، تحديا من نوع لم تختبره. وكانت قد سبقتها الى العمل في التدريس نخبة من خريجات الجامعة والكلية، ازدهرت على ايديهن الحركة التربوية، خصوصاً في معاهد الاناث.

* * *

عملت في العراق مدة اربع سنوات، غرست خلالها اطيب البذور، في نفوس تلميذاتها، من وعي، وتقدير لكل جديد، في مجالي العلم والتربية. كما ركّزت على اهمية اللغة العربية، وضرورة تطويرها. وتذكر عن تلك التجربة انها: «**كانت سنوات ممتعة. كان العراق، في حينه، يخوض تجربة جديدة، والتلميذات ينظرن الينا بكثير من التقدير، اذ كنا، بالنسبة اليهن، القدوة والمثال. وكان تعليمنا وسلوكنا ثورة حقيقية بالنسبة اليهن، اذ استخدمنا في التدريس، كل الاساليب الحديثة، ومارسنا النشاطات الثقافية خارج الصفوف، من الخدمات الاجتماعية، الى الفنون المسرحية، والموسيقية وسواها. واصدرنا نشرة ادبية... كنا ننفق وقتنا في العمل الابداعي، ولم تلبث المدرسة ان تحولت الى مركز ثقافي، كما ان التلميذات سجلن تفوقا ملفتا في الامتحانات الرسمية..**».

* * *

وكانت **روز** في العراق حين جاءتها منحة لتتابع تخصصها في جامعة **ميتشيغن**، في الولايات المتحدة الاميركية، لكن ظروفا صحية

حالت دون تحقيق الفكرة، كما اضطرتها الى ان ترفض المنحة. وصادف ذلك مع بدء الحرب العالمية الثانية، التي ألزمتها العودة الى لبنان. وقد اغتنمت **كلية بيروت** فرصة رجوعها، فدعتها لتكون في عداد اساتذتها، اضافة الى اشرافها على دائرة الدروس العربية فيها. وانغمست في العمل الجديد بكل الحماسة والاخلاص فالتعليم بالنسبة اليها، ليس وظيفة، بل هو رسالة خصوصا تعليم لغة احبتها، وكرّست الجهد والوقت، لتغرس حبها وتقديرها في نفوس الطالبات. وقد وصفها رئيس الكلية في ذلك الحين بقوله: «**انها تتمتع بذكاء نادر، وتكرّس حياتها للتضلّع باللغة العربية. اما كتابتها، فتجتذب الطالبات، على اختلاف مستوياتهن، وهذا ما يجعلها عضوا مهما وفعالا في الكلية**».

* * *

بعد انقضاء ثلاث سنين من العمل المتواصل، عُرض على **روز** ان تتسلم ادارة الدروس العربية في **الكلية الانجيلية الفرنسية**، وقبلت العرض والتحدي، فمستوى اللغة العربية في ذلك المعهد، كما في سواه من المعاهد الفرنسية آنذاك، لم يكن مرضيا. فإذاً، انفتح أمامها باب جديد، لتغرس بذور اللغة، وتتعهدها بأسلوبها المميز. وقد تمكنت من توظيف الطرق الحديثة في تعليم اللغة العربية، وساهم عملها في رفع المستوى، وباتت تلك الكلية، خلال فترة وجيزة، مثالا تقتدي به سائر المعاهد: «**كان العمل يحمل سمات التجارب الجديدة من تخطيط، وتأسيس، واعداد برامج، واختيار كتب، وتأليف اغنيات وقصائد**». لكن هذا كله لم ينسها امكان متابعة السعي لتحصيل درجة علمية اعلى. وهكذا تسجلت في الجامعة الاميركية من جديد،

كي تحصل على درجة **ماجستير**. وقد نالتها عام ١٩٤٥ . وكان عنوان اطروحتها: «النقد الجمالي، واثره في الادب العربي».

* * *

بعد انقضاء تسع سنين على عملها في التدريس والادارة، في الكلية الفرنسية، قررت **روز** ان تأخذ اجازة تنصرف خلالها الى التأليف. وكانت تنشر مقالاتها في المجلات الثقافية والنسائية الصادرة في حينه. لكنها لم تلبث ان عادت الى الكلية الفرنسية لتعلم بضع ساعات فقط، وتكرّس بقية وقتها للكتابة.

وظلّت عين الادارة في «كلية بيروت للبنات» ترصد نشاطها، ثم لم تلبث ان استدعتها لتولّي رئاسة الدائرة العربية فيها. واقتطفُ مقطعا من شهادة احدى طالباتها تقول فيها: «**كانت الآنسة غريّب، بالنسبة الينا، اكثر من استاذة عادية. فقد تمكنت من توجيهنا الى توظيف افضل طاقاتنا، في العمل الابداعي، او في مجال البحث الدقيق**».

* * *

وكانت الاستاذة تعمل بايمان الرواد، وبحماسة لا تعرف المهادنة. لقد احبت اللغة العربية، فعملت لها بكل طاقاتها وجهودها، وسعت الى خدمتها، وتقريبها من عقلية الاطفال، عبر كتب مبسّطة، ومسرحيات جذابة، واناشيد مرحة. ورأيها أنَّ «**اي نقص، في اللغة وأدبها، وكتب قراءتها، يجب ان يستنفر طاقات الاساتذة والطلاب، كي يضاعفوا جهدهم وحماستهم، ويذكي في نفوسهم الشعور بدور العمل الريادي، إنْ في النشاط الابداعي، او الاعمال التجريبية. ان التراث العربي لمن اغنى ما عرفه تاريخ الحضارات.**

**واذا كنا نعتمد على اللغات الاجنبية كمصدر للمعلومات والمعارف، يبقى هذا التراث، بالنسبة الينا، حجر الاساس والمصدر الاول للالهام».**

* * *

عام ١٩٥٠، ولمناسبة احتفال كلية بيروت للبنات، بيوبيلها الفضي، دشنت جمعية المتخرجات قاعة خصصتها للوجوه البارزة من خريجاتها، وقد جرى استفتاء بين المتخرجات، في بلدان انتشارهن، لاختيار المرشحات لهذا الامتياز، فبرز اسمان على رأس القائمة: الدكتورة **جمال كرم حرفوش** والآنسة روز غريّب، مع التنويه بأن سبب انتخابها يعود الى «**خدماتها في مجالي الادب العربي والموسيقى. ثم لكونها اول امرأة تتصدى للنقد الادبي..**».

* * *

تلك بعض خدمات **روز غريّب** في الحقل التربوي. اما **روز** الادبية، فقد اغنت المكتبة العربية بما قدمته من آثار تتوزع على عدة اوجه.

وتخبرنا لائحة اعمالها المنشورة، بأنها، ابتداء من العام ١٩٤٨، اصدرت ثلاثة كتب تضم اناشيد، ومسرحيات موسيقية، ثم كرّت من بعد، سلسلة كتبها القصصية للصغار، والبالغ عددها خمسة وثلاثين كتابا تتنوع بين القصة، والمسرحية والشعر. واذا توقفنا عند تواريخ نشر تلك المؤلفات، ندرك انها قامت بعمل رائد ومميز.

وللاديبة **غريّب** اربعة كتب تضم قصصا للاحداث. وثلاثة ذات توجّه تربوي، اذ تعالج الانشاء وعلم البيان. ولها مؤلفان في النقد

الادبي الحديث، ودراسة عن **جبران خليل جبران**. وكتب قراءة للمبتدئين، مع دفاتر تمارين ودليل الاستاذ، واغنيات تساعد الاطفال، على تعلم الاحرف الابجدية.

اما دراستها عن **مي زيادة**، فتعتبر من اهم المراجع الموضوعية التي تناولت سيرة تلك الاديبة الرائدة، ومعاناتها، بكثير من العمق والموضوعية. كما لها دراسة قيّمة عن الشاعرات المعاصرات في العالم العربي، الى عشرات المقالات التي تتناول النقد الادبي والاجتماعي، وتتوزع بين خمس عشرة مجلة وصحيفة.

وهذه العناوين دليلنا الى المجال الواسع والمتشعب لنشاط الاديبة **غريّب**، وإن اطفال لبنان، والعالم العربي، ينهلون يوميا من مورد عطائها العذب، قصصا وحكايات مبسطة وجذابة، تربطهم بجذورهم وحضارتهم وتنعش في نفوسهم القيم التراثية.

* * *

عام ١٩٤٥ اقيم في بيروت مهرجان الموسيقى الشعبية، وكان منظم المهرجان، الاميركي **رولا فولي**، فأخذ على عاتقه تدريب الطالبات والطلاب على الغناء الشعبي، ولم يجد سوى **روز غريّب** يلجأ اليها، كي تساعده في جمع الانغام الفولكلورية العربية، وتنظمها في كلمات مناسبة. وقد انتخبت رئيسة اللجنة التي نشرت اول مجموعة من الاغنيات الشعبية.

وساهم المهرجان مع الاغنيات والموسيقى التي جمعتها او وضعتها الاديبة غريّب، في خلق مناخ تربوي فريد، لم يألفه المربّون من قبل.

أورد، من تلك الاغنيات، وعلى سبيل المثال لا الحصر: «**البنت**

**الشلبية»** و «**عالروزانا**» ولا تزال تشنّف آذان الملايين، كبارا وصغارا على حد سواء...

هذه التجربة، جعلت الاديبة تتبنى فكرة ادخال الموسيقى والاغنية، في رياض الاطفال والصفوف الابتدائية. وبما ان المادة لم تكن متوفرة، فكان عليها ان تبدأ من نقطة الصفر.

* * *

في اواسط السبعينات، تأسس في **كلية بيروت الجامعية** «معهد الدراسات النسائية في العالم العربي». وقد ساهمت الاديبة **غريّب** في كثير من الابحاث والدراسات التي رعاها المعهد. كما اشرفت، على تحرير مجلة «**الرائدة**» وهي فصلية تصدر باللغتين: العربية والانكليزية، وتقوم بدور ثقافي فعّال، اذ دأبت على تعريف وجوه النشاط النسائي، في العالم العربي، وقدمت الشخصيات الفاعلة، كل واحدة في حقل اختصاصها.

* * *

ذات يوم، خطر لبعض صديقات **روز** وطالباتها، التنادي للبحث في موضوع تكريمها، بما يليق بعطائها الفذّ. وعقدت الاجتماعات من خلف ظهرها، لان طبعها يرفض كل مظاهر التكريم. ولا ادري بأية حيلة، استدرجت الى حضور حفلة التخرج، في نهاية العام الدراسي وفوجئت بخبر منحها وسام تقدير ومن مرتبة رفيعة. ورفضت من بعد قبول اي تكريم.

* * *

ان الحرب الشرسة، التي عاناها اللبنانيون جميعا، لم توفر ابنة **الدامور**، وقد مرت في تجربة قاسية، افقدتها المكان والامان، وخسرت خلال اجتياح بلدتها، بيتها وكل ما تملكه، بما فيه مكتبتها، وما تضم من مخطوطات معدة للنشر. واذكر اني التقيتها في اثر تلك التجربة وذكرت، في سياق الحديث، انها فقدت تسع مخطوطات قيّمة. ولم استطع ان افهم كيف يمكنها التحدث بتلك البساطة عن خسارة من هذا النوع. وقد ازداد ذهولي حين سمعتها تقول: «**في إمكاني ان اعيد كتابتها...**».

وقد نشرت عدة اعمال، منذ ذلك التاريخ، ولا ادري ما اذا كان بينها بعض ما فقدت...

اذكر ذلك لاشير الى موقف **روز غريّب** من التجربة، اذ لم يكن في نبرة صوتها اي اثر لحقد او مرارة. فعقلها العلمي المتوهج كان السيد المتغلب على الانفعال العاطفي، شأنها في كل ما كتبت وفعلت. وفي اعتقادي ان الذي ساعدها على «القيامة» هو نزعتها الصوفية، وتجرّدها، وهي تطبّق قول المتصوفين في مسلكها وطريقة عيشها، اذ انها «**تعيش في هذا العالم، لكنها ليست منه**».

* * *

وقد خرجت من دنيا الناس، منذ بضع سنوات، واختارت الاقامة في صومعة فكرها. وبقيت مرتبطة بالكون وما يدور فيه، بواسطة الكلمة، وسيلة اتصالها وتعبيرها، وجسر عبورها الى الاخرين. ومن تلك الصومعة، تطل على القراء، بين الحين والاخر، عبر الصحف والمجلات، لتبدي رأيها في وضع سياسي او اجتماعي او تربوي وأدبي.

وفي ذلك كله، تبقى المفكرة الموضوعية، والباحثة المعتمدة على العقل والتجربة، وصفاء الرؤية.

---

- رائدات تأليف د. ماري صبري.
- سيرة ذاتية وأعمالها.

# د. سهير القلماوي

«ما دامت المرأة لا تفهم وضعها وما ينقصها،
فكيف يسعها ان تدافع عن قضيتها؟..».

كان طموحها الاول، حين دخلت الجامعة، ان تُقبل في كلية الطب. لكن طلبها رُفض، لانها «بنت». وبما انه لم يسبق لواحدة من «البنات» ان تسجّلت في تلك الكلية، فكان من الصعب، بل المستحيل، على الادارة، ان توافق على سابقة لا احد يعلم الى اين تقود.

هكذا رضيت الطالبة الطامحة **سهير القلماوي** ان تدخل فرع الآداب في جامعة القاهرة، ريثما تتاح لها الفرصة لتحقق حلمها.

وفي فرع الآداب استقرت وتابعت دراستها الجامعية العليا حتى نالت شهادة دكتوراه.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

* * *

القصة تكاد تكون تقليدية، تتساوى فيها نساء رائدات، من الشرق ومن الغرب. خصوصا في حين كانت للمرأة حدود وأَدوار تقليدية مقبولة... وهي قصة الاجيال التي عبّدت الطرق الوعرة، وقلعت الاشواك بأصابعها، وفتحت لأجيال المستقبل ابواب العلم على كل المصاريع، كما اتاحت لسواها، فرصا ذهبية، كانت هي تبلغها في الحلم، او في الخيال.

* * *

وبينما أُطالع صفحات حياتها الغنية بالعطاء اتساءل: او كان يمكن، لهذه السيدة، ان تخدم في مجال الطب اكثر مما خدمت في حقل الآفات التي تفتك بالكيان الانساني؟ او ليست الثقافة طبا من نوع آخر؟

فقط اتساءل، واتابع قراءة الحكاية.

* * *

ابوها **محمد القلماوي** كان طبيبا جراحا، عمل في الحكومة مدة قبل ان يبدأ عملا حرا. وامها زهرة ابراهيم راجي ابنة مهندس، وسيدة راقية، تثقفت الى جانب الدراسات العربية، باللغتين الفرنسية والايطالية. وفي هذا البيت المنفتح على العلوم ولدت سهير في ٢٠ تموز من عام ١٩١٣ . ودخلت كلية البنات الاميركية، من صف الروضة، حتى تخرجت حاملة شهادة ثانوية تؤهلها دخول الجامعة، ومزودة بثلاث لغات هي العربية، الفرنسية والانكليزية... اضافت اليها فيما بعد، وخلال دراستها الجامعية، الفارسية والتركية. وكانت قد اطلعت على اعمال الادباء العرب، على يد والدها، ومعه قرأت القرآن الكريم.

لكن المستوى العلمي الذي بلغه الوالد، لم يمنعه من معارضتها حين فكرت في دراسة الطب، وذلك انسجاما مع مناخ العصر، وخوفا من الجديد، الذي لم يعبر طور التجربة. وكتمت **سهير** غيظها، ودخلت كلية الآداب، ريثما تبلغ الحادية والعشرين من عمرها - سن القرار المستقل - وكان عميد الكلية في حينه الدكتور **طه حسين**، والمطلوب، للدخول: الثانوية المصرية العامة، او ما يعادلها... ودخلت

الطالبة «بما يعادلها» اي شهادة المعهد الاميركي.

* * *

في الجو الجديد، راحت تتفتح مواهبها، وتنمو طاقاتها، واغتنمت الفرصة لتكتب. وبدأت، مثلما يبدأ معظم الادباء، بكتابة الشعر، ونشرت مقالات وقصائد في مجلات ثقافية.

وتذكر ان اول مقال نُشر لها في مجلة «الرسالة» عام ١٩٣٢ . اتبعته بسلسلة مقالات، ثم تحوّلتْ لتكتب لمجلة «الثقافة».

اما جوّ الكلية، فكان مزيجا من ابناء الريف والمدينة. ولم يكن عدد الطالبات بينهم اكثر من اربع فتيات، اخذن الصدمة الاولى، اذ كان حضور الفتاة وسط ذلك الجوّ غريبا، ومثيرا للاستهجان بل العدائية في كثير من الأحيان.

* * *

انفقت **سهير** اربع سنوات في دراسة الادب، ونالت شهادة ليسانس عام ١٩٣٣، ثم درست الصحافة وحصلت على درجة ماجستير عام ١٩٣٧ . وعُيّنت بعد ذلك معيدة في الكلية، لمدة سنتين، من ١٩٣٧ حتى ١٩٣٩، حين اختيرت لتسافر مع بعثة علمية، وتكمل تحصيلها العالي في جامعة **السوربون** في باريس... لكنها رجعت بعد سنتين وقبل ان تتخرج بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية. غير انها تابعت اعداد رسالة الدكتوراه، وموضوعها «الف ليلة وليلة» وناقشتها عام ١٩٤١ .

* * *

كانت، خلال رحلتها الى فرنسا، قد التقت طالب البعثة **يحي الخشّاب**، وكان يتابع تخصصه في الحضارات والادب المقارن. وقد ركّز، على دراسة الحضارة الاسلامية، مع التأكيد على الفارسية، وحين عاد الى القاهرة، حاملا شهادة الدكتوراه، عقد قرانه على الزميلة **سهير**، وذلك عام ١٩٤١، واثمرت حياتهما المشتركة عشرات الابحاث والمؤلفات بينما كانا يتابعان التدريس في جامعة القاهرة. اما على الصعيد الانساني، فقد انعمت عليهما الحياة بولدين يتابعان اليوم، حمل الشعلة، عن الوالدين الرائدين:

ابنهما **ياسين**، مهندس، مولود عام ١٩٤٥، متزوج ويقيم حاليا مع عائلته في كندا. **وعمر**، طبيب، مولود عام ١٩٤٨ ويعيش في القاهرة. وبالطبع هناك احفاد من الجانبين: ولد وثلاث بنات.

* * *

كيف تكون الحياة الزوجية مع الزمالة العملية؟ الدكتوره سهير حسمت الوضع من بدء الطريق: «**في البيت لا نتحدث عن الكلية. ثم لكل منا مكتبه، حيث ينصرف الى التأليف، والقراءة، او التصحيح والاعداد للمحاضرات. وحين نتبادل الآراء، يكون ذلك على سبيل التفاهم؛ اما في تربية الاولاد، في الصغر، فقد اتفقنا على ان نكوّن رأيا موحدا، في كل الحالات. ثم نتبع القانون الذهبي؛ للولد الحقّ في ان يفعل ما يشاء، وكيفما يشاء، شرط الاّ يضرّ بنفسه او بالآخرين.**

**أما في الحياة العائلية، فإن البيت هو للاطفال اولا، وليسوا على**

**الهامش. كما ان الضرب ممنوع، والتربية تكون أفضل بالإعتماد على الحوار ومناقشة الحق بكل الحب».**

* * *

من الضروري تسجيل هذا الموقف التربوي الذي طبّقته الدكتوره **سهير** مع ولديها. فهي ليست استاذة جامعية وحسب، بل ان اهتمامها يتعدّى التعليم الجامعي، ليصل الى الاطفال، في ملاعبهم، وكتبهم، وعلومهم.

وقبل ان نشرح تفاصيل اهتمامها بالطفل، لا بد من تسجيل المراكز الاكاديمية التي شغلتها: استاذة في كلية الآداب، جامعة القاهرة، منذ العام ١٩٥٦ . ترأست دائرة الدراسات العربية في تلك الكلية بالذات من عام ١٩٥٨ حتى ١٩٦٧ . كما عينت من قبل الدولة عضواً في المجلس الاعلى للثقافة - رعاية الفنون والآداب - عام ١٩٥٨ . وكان من اعضائه البارزين ايضا، ومنذ انشائه: **العقّاد، طه حسين، نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم**. كما عُيّنت الدكتوره **سهير** رئيسة المؤسسة العامة للنشر، والتابعة لوزارة الثقافة، من العام ١٩٦٧ حتى ١٩٧١ . أستاذة في معهد البحوث والدراسات العربية التابع لليونسكو وكانت رئيسة القسم العربي فيه.

وعلى صعيد الجامعات العالمية، فقد كانت الدكتوره **سهير** استاذة زائرة في عدة جامعات اميركية، من العام ١٩٦٥ حتى ١٩٧٠، كما قامت بزيارات مماثلة لعدد من الجامعات العربية، حيث كانت تدعى، لتحاضر، وتعقد الندوات وتشارك في المؤتمرات الفكرية والادبية.

* * *

لها نشاط نسائي متعدد الجوانب، وعلى المستوى الاكاديمي، كذلك. كانت رئيسة الاتحاد الدولي لخريجات الجامعة - فرع القاهرة - مدّة اثنتي عشرة سنة. ولهذا الاتحاد فروع في جميع المدن الجامعية.

وقد شغلت منصب رئاسة الاتحاد النسائي العربي من العام ١٩٦٦ حتى ١٩٧٨، حين جُمِّد نشاط الاتحاد المصري، فسلّمت وثائقه وحساباته لجامعة الدول العربية..

وكانت الى ذلك رئيسة اتحاد الجامعيات. وتجد، برغم الاعمال المتراكمة، وقتا لتمارس نشاطات أخرى، تخدم من خلالها العلم والمجتمع:

ففي الصحافة، ظلّت حرّة، ولم ترتبط بمجلة او بوظيفة، لذا كتبت، وعلى مدى سنين، وفي فترات مختلفة في كل من المجلات التالية: **الهلال، الثقافة، الرسالة، الادب، الكاتب العربي، الاهرام وصحف كوكب الشرق.**

وانتُخبت ثانية في مجلس الشعب من العام ١٩٧٩ حتى ١٩٨٤ . كما عُهد اليها بامانة المرأة في الحزب الوطني الديمقراطي من العام ١٩٧٩ حتى ١٩٨٤ . وهي اول امرأة في مصر، تنتخب لرئاسة لجنة الثقافة والاعلام سنين. وتقول انها كانت تجربة مفيدة ومخيّبة في آن. اذ لمست مدى انتشار الامية في مصر، وهذا هو السبب الرئيس في نظرها، في فشل الكثير من المشاريع. فهناك امية الحرف، ونسبتها ثمانون بالمائة، وامية الابجدية ونسبتها ست وخمسون بالمائة...

وشاركت الدكتوره الادية في ما يزيد على المائة مؤتمر عالمي، حول: الادب وشؤون أسيوية - إفريقية، ونسائية.

* * *

وكانت تهتم بناحية اخرى من الثقافة، وتكرّس لها الكثير من الوقت والعطاء، واعني ثقافة الطفل؛ فقد انشأت ندوة للطفل، ملحقة بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب. وباشرافها تُنشر مجلة الطفل العربي. وتُقام ندوات ادبية للاطفال. ومعارض سنوية، مع ندوات موسّعة.

وتركز بصورة خاصة على الكتب العلمية، وذلك ضمن نشاطها العام كرئيسة مجلس ادارة مؤسسة التأليف والنشر، والتي اقامت المعرض الاول للكتاب الدولي. وقد حصلت على امتياز لترجمة كتب علمية للاطفال في ستة وخمسين جزءا: تُرجمت باشرافها وتوّلت هي مراجعتها. كما اهتمت بإعداد موسوعة علمية للاطفال، تتفرّع في ثمانية واربعين موضوعا.

* * *

هل هناك مجالات اخرى لم يتطرق اليها البحث؟

نعم. وهذه بعض العناوين: عضو في مجلس الفنون والآداب والانسانيات. نائبة رئيس الجمعية المصرية للكتاب. عضو في اتحاد الكتاب العربي، واتحاد كتّاب آسيا وافريقيا. عضو في مجلس ادارة عدد من الجمعيات الادبية والعلمية.

ثم تأتي المؤلفات: فقد ألّفت الدكتورة **سهير** عشرة كتب تتراوح

مواضيعها بين النقد الادبي والفني، والقصة، والرواية. كما ترجمت عددا مماثلا من روائع الادب العالمي وكتب الفلسفة، والمسرحيات، مستكملة خريطة نشاطها الفكري والفني المتعدد الوجوه والروافد.

وقد نالت تقديرا كبيرا، من المؤسسات كما من الحكومة. وتجلّي بعض التقدير في منحها جوائز منها: جائزة المجمع اللغوي، عام ١٩٤٥ وجائزة الدولة التقديرية في الادب، نالتها مرتين: عام ١٩٥٥ و ١٩٧٧ .

جائزة كُتّاب آسيا وافريقيا سنة ١٩٧٥ . ومن بين الأوسمة، مُنحت وسام الاستحقاق، طبقة اولى، عام ١٩٧٧ .

* * *

وكانت صاحبة هذا العطاء الوافر متيقظة، شديدة الاحساس بالقضايا العامة. موضوعية، ومجردة في نقدها، ومواقفها.

ومن أرائها: **ان المرأة العربية لا تزال في وضع متدنّ، وهي المسؤولة الاولى، قبل الرجل او الحكومات. وما دامت لا تفهم وضعها، وما ينقصها، فكيف يسعها ان تدافع عن قضيتها؟...**

* * *

يبقى ان اعترف، بأني عبر اللقاءات القليلة، مع الدكتوره **سهير القلماوي**، كانت تتجلى باستمرار، شخصية السيدة العالمة، التي لم تدرس الطب، كما اشتهت، لكنها حملت الميزان العلمي، في مسيرتها الادبية، وبنت احكامها على المنطق، والتجرد والموضوعية، غير مبالية بما اذا كان هناك من تغضبه مواقفها، ما دامت هي مؤمنة بما

تقول وتفعل، وواثقة بانها تتوخى المصلحة العامة، من خلال ما تقوم به، اكثر من المنفعة الشخصية. وهذا ما حفظ لها المكانة الرفيعة التي تحتلها بين كبار المفكرين في وطنها...

---

- مقابلة شخصية معها.
- سيرة ذاتية.

# جمال كرم حرفوش

«يا بنتي، لا تحسبي السنين... ادرسي الطب
مهما طالت المدّة، ومهما بلغت التكاليف...».

أعترف، بكل صدق و إخلاص، بأني كلما التقيت هذه السيدة، تزداد ثقتي بالحياة وبالإنسان.

وأنا، بكلامي هذا، لا أقصد مديحاً، إنما أردته مقدمة لما سأقوله، من خلال خصال تميزها. ذلك اننا، مهما حاولنا أن نطرح على الشخص الآخر من صفات وألقاب فإنها تبقى خارجية، بل مفرغة من محتواها، إن لم تكن في الأساس نابعة من صميم كيانه، من أفعاله، ومن تأثير بصماته، فوق دروب العمر.

* * *

الدكتورة، جمال كرم حرفوش، حفنة بركة وعطاء.

هكذا هي. هذا ما تكتبه مع كل خطوة تدفعها قدماً في سبيل خدمة الإنسان.

ولدت جمال كرم، عام ١٩١٤، في جزين، البلدة الجميلة الوادعة، والمتربعة بجوار شلالها الشهير.

والدها غطاس كرم، محام من الرعيل الأول، معروف في محيطه، كرجل علم ونزاهة، وأمها لطيفة، حصلت علوماً ابتدائية، كانت تغذيها بالمطالعة الدائمة. وبتوق لا يخبو لأن تعوض ما فاتها، من خلال تعليم أبنائها. وهكذا أنشأت عائلة جميع أفرادها حائزين على مستوى ثقافي رفيع.

عائلة جمال تتألف (إلى الأم والأب) من خمسة فتيان وفتاتين، وهي الثالثة في سلم الولادات. وقد لاحظت الأم نباهتها من المرحلة الابتدائية، حين كانت لا تزال تلميذة في مدرسة البعثة الاميركية في جزين، فراحت ترعاها، وتشجعها؛ ولما بلغت الفتاة سنها العاشرة، أرسلها والدها إلى المعهد الأميركي في صيدا، حيث أقامت في القسم الداخلي حتى تخرجت، حاملة الشهادة الثانوية، التي تؤهلها لدخول الجامعة.

وتذكر، أنها قالت لرفيقاتها، حين أقبلن يهنئنها: «**انتو خلصتو، وأنا رح أبدأ**».

ولم تدرك الرفيقات في حينه، معنى العبارة، إذ كان نيل الشهادة الثانوية، غاية طموح الفتاة، ولا تتخطاها إلا أقلية جداً من المغامرات.

ومن هذه الأقلية **جمال**. كانت مصممة على دراسة الطب، مدعومة بتشجيع الوالدة التي أرادتها أن تبلغ أرفع مستوى علمي. وجاء من ينصح الصبية بأن تختار طب الأسنان، إذ لا تستغرق دراسته وقتاً طويلاً، فقالت لها أمها:

– **يا بنتي، لا تحسبي السنين، أدرسي الطب الذي تطمحين إليه مهما طالت مدة الدراسة ومهما بلغت التكاليف...**

قالت ذلك، وفي خلفية ذهنها صورة الطبيبة الأجنبية **ماري أدي**، التي تصطاف في جزين، وتعمل في مركز التدرن الرئوي، وتداوي الأطفال من أمراض الصيف.

«**أريدك أن تصبحي مثل ماري أدي**»، أكدت الأم. وشعرت الابنة

بحسها الإنساني الأصيل، بأن هذا المجال يدعوها: طب الأطفال!...

وهل هناك ما هو أعظم من إنقاذ طفل من براثن مرض خطر، ثم مساعدته على تخطي المراحل الصعبة في حياته، خصوصاً في ذلك الزمان، حين كان الطب العادي نادراً، فكيف بالاختصاص؟...

* * *

صعود السلم درجة، درجة. وكانت المحطة الأولى في «**الجونيوركولدج**» (كلية البنات الجامعية حالياً) حيث تابعت دراستها لمدة سنتين، وكان أخوها المهندس فؤاد، يدرسها علم الهندسة خلال عطلة الصيف، كي تستوفي شروط القبول في كلية الطب. كما عاشت في منافسة دائمة مع بقية الأخوة الطامحين، الذين برز منهم الطبيب، والأديب، والشاعر والفيلسوف، والأستاذ الجامعي. لكن **غطاس كرم**، لم يهنأ بأولاده، إذ لم يطل به العمر ليراهم يثمرون في الحياة، ويردون الوزنات التي بذلها في تعليمهم.

وهنا، تشهد **الدكتورة جمال** لذلك الوالد:

**– كان، لشدة حماسته للعلم، يحضر لي قسط الجامعة من أول الصيف، كي لا يكون هناك ما يعيقني عن التسجيل؛ وهذا مهم جدّاً، إذا ذكرنا الزمن، الذي لم يكن زمن بحبوحة... ثم كان يعتمد زيارتي بين الصفوف، أو في المختبر، ليشاهدني أرتدي المريول الأبيض.**

لكن هذا الأب الفخور، رحل، وابنته في السنة الثانية طب. وحين تخرجت، عام ١٩٤١، لم يكن هناك ليطبع على جبينها قبلة التهنئة.

وتستأنف هي فتقول: «**هل هي أنانية مني؟... لست أدري. لقد**

**فرحت تلك السنة حين ألغوا حفلة التخرج، بسبب الحرب».**

* * *

ومرحلة الدراسة لم تكن تخلو من صعوبات، صحيح أن **جمال كرم** لم تكن الفتاة الاولى التي تدخل كلية الطب في الجامعة الأميركية، إذ سبقتها إلى الدراسة عدة فتيات، لكنها المرأة الاولى، في لبنان، التي لم تكتف بممارسة الطب، بل تابعت التخصص في مجالاته الأرفع. وكانت، في أثناء دراستها، الطالبة الوحيدة في صف مؤلف من الشباب. وهذا ما تسبب في الإحراج لها، ولبعض الأساتذة، في مناسبات عدة...

والفتاة التي اختارت الطب، كانت تعرف ما سيواجهها في صفوف التشريح والمحاضرات العلمية المفتوحة؛ فهي ليست معقدة من هذه الناحية. إنما لم يكن يفوتها أن تلاحظ ضيق واحد أو اثنين من الأساتذة، بوجودها، وكان أحد أولئك الأساتذة (وهو طبيب) يبدي عدائية جعلتها تتساءل:

**– هل الرجل ضد المرأة؟**

ولم يكن هناك من يجيب عن سؤال لم تطرحه علناً. وكان عليها أن تنتظر سنين، لتعلم أن مشكلة الطبيب الأستاذ لم تكن بسببها هي، بل لعدم تكيفه الاجتماعي.

انصرفت **الدكتورة جمال** إلى التطبيب في جناح الأطفال، في مستشفى الجامعة الأميركية؛ وكانت، في الوقت نفسه تقوم بأبحاث حول صحة الطفل والأم، في شتى المناطق في الريف والمدينة.

وقد انتقلت بعد حين إلى جامعة **هارفارد** حيث تابعت تخصصها

ونالت درجة رفيعة في الطب الاجتماعي وعلم الصحة وذلك عام ١٩٥٩، كما عادت إلى الجامعة نفسها، وحصلت على درجة دكتوراه في الصحة العامة، عام ١٩٦٥ .

وكانت السنوات التي أنقضت، بين تخرجها من الجامعة الأميركية، وتخرجها من هارفارد مليئة بشتى النشاطات العملية والعلمية في الخدمات الطبية، كما في الأبحاث والتدريس. فاللائحة أمامي تحمل التواريخ، على مدى أربعين سنة، قضتها السيدة الكريمة في الخدمات الإنسانية والاجتماعية، لا تفلت منها فرصة، ولا تضيع لحظة إلا وتجندها في خدمة العلم والمعرفة.

لقد طببت الأطفال في مستشفى الجامعة، كما في عيادتها، وعملت أستاذة في كلية الطب، ومعهد التمريض، والصحة العامة، وعُيّنت رئيسة لكلية الصحة العامة في الجامعة الأميركية. وركزت اهتمامها، في مجال التدريس والأبحاث، على صحة الأم والطفل. وأدت لكليهما خدمات كثيرة، يمكننا إحصاء بعضها من قائمة طويلة، تحمل الأحداث وتواريخها.

* * *

والمدهش في مسيرة **الدكتورة حرفوش** هو تنوع النشاطات التي قامت بها؛ فقد عملت مستشارة للبعثات الصحية اللبنانية إلى الأمم المتحدة، ومستشارة ومرشدة لمنظمة الصحة العالمية عدة مرات، كما شاركت في عضوية مؤتمرات عقدتها منظمات الأمم المتحدة، المعنية بشؤون الطفولة، والصحة العامة والتغذية. وهي عضو في اللجنة الاستشارية لمطبوعات جامعة أوكسفورد حول صحة الطفل والأم،

ومستشارة فخرية لدراسات الطفولة في جامعة بريستول (إنكلترة).

هذا المدى الدولي الذي تنشط فيه، جعلها تساعد في بعض البلدان العربية، مثل اتحاد الامارات العربية، وبلدان شرق أوسطية، وذلك في حقلي الطب الوقائي وطب الأطفال.

* * *

**والدكتورة حرفوش** عضو في عدد من أهم المؤسسات والجمعيات، المحلية والعالمية، بينها: الجمعية الطبية الدولية، الجمعية اللبنانية لطب الأطفال، نقابة اطباء لبنان، الجمعية الأميركية للصحة العامة؛ الجمعية العالمية للمعاقين. وهي عضو اللجنة الاستشارية ومن مؤسسي: الجمعية اللبنانية للتقدم العلمي، عضو الاتحاد الدولي لعلم التغذية، والاتحاد الدولي لعلم الصحة؛ وقد ترأست لجنة الستة، المهتمة بصحة الأم في أثناء الحمل والرضاعة.

لكن نشاط الدكتورة لا يقتصر على مجالي الطب والعلم، بل يتعداهما إلى القضايا الاجتماعية والثقافية، خصوصاً ما يهم المرأة والطفل، فهي مؤسسة الاتحاد اللبناني لرعاية الطفل، واتحاد المؤسسات غير الحكومية في لبنان، والجمعية اللبنانية للمعاقين. كما أنها عضو المجلس الإداري لكلية بيروت الجامعية، ومؤسسة الصليب الأحمر، ومن مؤسسي: الاتحاد النسائي اللبناني، اللجنة الوطنية للأونيسكو، اللجنة النسائية اللبنانية للحقوق السياسية والاجتماعية، ونشاطات أخرى في جمعيات ومؤسسات يضيق المجال عن ذكرها جميعاً.

والطبيبة العالمة، أنفقت الكثير من جهدها ووقتها في الأبحاث العلمية والطبية؛ وقد نشرت نتائج أبحاثها في دراسات يتجاوز عددها

الخمسين دراسة. ولها ستة كتب منشورة، وكتابان قيد الطبع، وما يزيد على الأربعين بحثاً أعدت لمؤتمرات عالمية.

أما المواضيع التي ركزت عليها فتتراوح بين علم الصحة (الأم والطفل في الدرجة الأولى) الطب الوقائي، الصحة العامة والتغذية. وتتميز مؤلفاتها بالذكاء، وعمق الفهم للبيئة وحاجاتها، واتساع الأفق. ونلاحظ أن اهتمامها كان دائماً يتركز على صحة الطفل ووقايته خصوصاً في البيئات المتخلفة التي قامت بدراستها، وتكون بذلك قد ثابرت على الخط الذي حلمت به الوالدة، حين دفعتها لتدرس «الطب الحقيقي» الذي لا تُحدَّد مدته بالسنوات.

* * *

ينجرف القلم مع تيار العمل المثمر الذي ارتمت فيه الطبيبة الإنسانة، بكل زخم واندفاع، ويكاد يغفل التجارب الشخصية والإنسانية في حياتها.

فقد كان من الطبيعي أن تلفت أنظار محيطها، صبية جميلة، مثقفة، عذبة الملامح، طيبة النظرة، فيتقدم الخطاب لطلب يدها. ويعقد النصيب لشاب يوازيها في الحسب والثقافة، هو **الصحافي الياس حرفوش**، صاحب جريدة «**الحديث**» إحدى صحف الطليعة في حينه.

وكانت **جمال** قد تخرجت من كلية الطب، وعلى أُهبة السفر للتخصص في الخارج حين أُقفل البحر، بسبب الحرب العالمية الثانية. وكأنما تلك كانت الإشارة لها لتقبل بالنصيب الذي طرق بابها.

وأذكر، من حديث لأحد الصحافيين، يصف فيه الحفلة التي أقيمت لمناسبة زواج الدكتورة والصحافي قال: «**كانت تلك مناسبة رائعة، بل كانت مهرجاناً التقت فيه وجوه البلاد وكبار الشخصيات**»...

أما الدكتورة **جمال**، فتصمت حين تسأل عن هذه التجربة التي دامت ثماني سنوات، كانت خلالها دار الزوجين ملتقى الأصدقاء، ومقراً تُعقد فيه الاجتماعات السياسية والفكرية، وكان يمكن أن تستمر الحال كذلك لو...

السيدة الكبيرة تلزم الصمت.

وأمام إصراري لتسجيل حقيقة في حياتها خرجت عن صمتها لتقول باختصار: «**أجبرت على أن أكون ضد مثاليتي في مفهومي للعائلة. كان هو عدو نفسه. اعتبرت هذا الزواج تجربة كُتب لي أن أختبرها**»...

وبعد ما حصل الهجر بين الزوجين حافظت الطبيبة على اسم الزوج، وكانت قد عُرفت به في مهنتها ومؤلفاتها. وحين توفي **الياس حرفوش** في أواسط الستينات، كانت **الدكتورة جمال** تُنهي اللمسات الأخيرة على أطروحة الدكتوراه التي حصلتها في جامعة هارفارد.

برز اسم **الدكتورة جمال** أكثر من مرة خلال أحاديث وذكريات سيدات الحركة النسائية، حول الدور الذي لعبته المرأة في مناسبة نيل الاستقلال. وفي الواقع أن جمال الصبية المثقفة، كانت في قلب الحركة، وساهمت فعلياً في كل ما دار من نشاط، وانتخبت مع

السيدة **إيفا مالك**، سكرتيرة لجنة الاستقلال، كما كانت واحدة من المائة والخمسين سيدة اللواتي قصدن مقر البطريرك عريضة خلال اجتماعه بالمطارنة والبطاركة، وألقت كلمة باسم السيدات، طالبت فيها بالدعم الكلي لاستقلال لبنان. وقد تمخضت تلك الحركة، فيما بعد، عن هيئة دائمة عُرفت باسم «**جامعة نساء لبنان**».

وكانت «**الجامعة**» تضم نخبة من أرقى السيدات، وقد انتخبت السيدة **حنينة الطرشا**، رئيسة لها لعدة سنوات، وأصدرت مجلة «**صوت المرأة**» التي لعبت دوراً هاماً في توعية المرأة، وفي تشجيع الأقلام الناشئة.

* * *

سألت **الدكتورة جمال** عَمَّا إذا لاقت متاعب، خلال الأربعين سنة التي مارست فيها عملها، في حقل، كان خاضعاً لسيطرة الرجل، فأجابت: «**ان ذلك وارد بالطبع. وكلما ارتفع مركز المرأة، إن في الثقافة أو العمل، يزداد شعور الرجل بالخطر، أي خطر المنافسة**»...

أما هي فلم تُعَانِ من تلك المشكلة؛ يعود ذلك إلى طبيعتها العذبة، والايجابية ، وتلك البسمة التي لا تفارقها؛ وحتى في أحلك الأوقات وأصعب الشدائد، تفتح لها القلوب والأبواب. لكنها ليست ابتسامة التسليم ولا الليونة، حين يتطلب الموقف الحزم والجدية. فلكل نجاح ثمن يبذله المرء ويدافع عنه، ولا شيء يأتي مجاناً.

* * *

كذلك للنجاح مكافآت وجوائز لا بد منها، ويتقبلها الإنسان الكبير، بتواضع وفرح، وشكر للقدرة الإلهية التي جعلته واسطة خير

في محيطه. أول تلك الجوائز جاءتها من كلية بيروت الجامعية باسم: **جائزة الشهرة**، وذلك عام ١٩٤٩ . ثم **وسام الأرز اللبناني** عام ١٩٥٧ . **منحة المؤسسة الوطنية للبحوث الصحية من الولايات** عام ١٩٦٠ - ١٩٦٤ وقيمتها ٧٥ ألف دولار.

الجائزة **الإنسانية الكبرى** - فرنسا عام ١٩٦١ .

**جائزة سعيد عقل** ١٩٦١ . ميدالية ذهبية لعام ١٩٦٧ من مؤسسة الجامعيات اللبنانيات. دبلوم عضوية شرف من جمعية طب الأطفال في الأرجنتين. دبلوم النساء والرجال المميزين من جامعة كامبردج - بريطانيا. إسمها مدرج على لائحة المشاهير الصادرة عن جامعة كامبردج.

* * *

والطبيبة العالمة، متواضعة كزهرة بنفسج، مختبئة بأكمامها العطرة، تبث عطاءها الخير في كل صوب. لست أدري ما إذا نالت حقها من الشهرة في وطنها، إنما لها امتيازها وشهرتها في الحلقات الدولية، وأوساط الطب والعلم.

ولست أذيع سراً إذا تحدثت قليلاً عن بعض صفاتها الشخصية، وفي مقدمها التفاؤل، والتواضع، والإيمان، وذلك الهدوء الذي يشع من العينين، حين يكون الإنسان قد توصل إلى المصالحة مع نفسه، وأدرك الذي يريده من الحياة فسعى إليه وحققه.

لقد عرفت **الدكتورة جمال الحزن** باكراً، حين فقدت والدها، وسندها، وهي على مقاعد الدراسة، ثم عرفته حزناً يحز شغاف القلب، حين فقدت، في غضون أربع سنوات، اثنين من أخوتها في

أوج الشباب والعطاء وهما: الدكتور **أنطوان غطاس كرم** وأستاذ الرياضيات والشاعر **عاطف كرم**. ووقفت أمام الحادثين بشجاعة المؤمن، وفوق ثغرها ابتسامتها الدافئة، والتي تحمل من الحزن أضعاف ما تبثه الدموع، ولكنها تقول للناظر: **هكذا الإنسان يُختصر في لحظة، في موقف من وجوده، ومغزى رحلته الأرضية.**

وكانت، في تلك الحالات جميعها قدوة ومثالاً في الصبر والصمود.

وحين تسأل جمال، عن سر نجاحها تقول: «**السبب هو التشجيع الذي لقيته باكراً من عائلتي ومحيطي، ولاحقاً من أساتذتي وأصدقائي، ثم من الإيمان بالنفس، والتفاؤل الدائم، والنشاط الذي لا يحد، ولا يعرف محطة وقوف**»...

---

- مقابلة خاصة معها على مرحلتين.
- مقالات لها وعنها لا تزال مخطوطة.
- في طريق الحياة من تأليفها صدر عن مؤسسة نوفل ١٩٨٧ .
- رائدات - تأليف د. ماري صبري.

# أمينة السعيد

«لا خلاص للمرأة إلا بالنضال والأمل... فالرجل لن يساعدها في تحقيق ما تريده من تقدّم وما تسعى اليه من طموح».

اسمها يتقدم الكلمات، ولا يحتاج الى تعريف او مقدمات. فطوال نصف قرن، تربّعتْ **امينة السعيد**، باستحقاق، على عرش الصحافة لا في مصر وحسب، بل وفي العالم العربي بأسره... وبينما احاول رسم هذه اللوحة لشخصيتها القوية، ونضالها الشاسع المدى، المتعدد الفروع والتشعبات، اشعر بأن مقالا واحدا لن يفيها حقها، وبالطبع لن ينقل الى القارئ سوى ملامح مختصرة عن رحلتها الرائدة في دنيا الفكر والصحافة والنضال النسائي.

* * *

من اين تبدأ الرحلة معك، سيدتي؟

ومن اي الروافد اقبل على الكتابة عنك، وقد كنت واحدة من تلميذاتك؟ بل لا اراني ابالغ اذا قلت بأن كل من تحمل اليوم قلما لتكتب حرفا في مجلة او صحيفة، في بلاد العرب قاطبة، هي تلميذة مدرستك، سواء اوعت ذلك ام لا...

وانت، حين اخترت الصحافة، فعلت ذلك بدافع الحب، والحماسة البالغة للتعبير عن الفكر، ثم استخدَمتِها واسطة لبذر الوعي والتحرر في النفوس الراقدة. وكنت، في مرحلة مبكرة جدا من مسيرتك، واعية الوعي الكلي، بأنك تضعين حجر الزاوية في أساس النهضة النسائية التي نتمتع اليوم بجني ثمارها.

* * *

ما الذي يجعلني اجنح الى المخاطبة الشخصية، وابدل اسلوبي الموضوعي في هذه الزاوية؟ أتراها سطوة الشخصية، وقوتها؟... ام وجهها الغارق في الجد والتصميم؟ وتلك المثابرة العنيدة، ومغالبة الدهر، ومواجهته في كل الساحات، بكامل العدة والعتاد، وفي مقدمها الشجاعة والتفاؤل... فالدنيا، في مفهوم سيدتنا، لا تؤخذ الا غلابا!

* * *

قصتها مع المواجهة العنيدة قديمة، وتعود الى يوم كانت طالبة في جامعة القاهرة، وخطر لها ان تلعب «التنس» (كرة المضرب).

بكثير من العفوية، دخلت الطالبة الملعب، وبدأت تمارس لعبة لم يكن للفتيات فيها اي نصيب، وفجأة تبدل جو الجامعة، فاكفهر، وتلبدت فيه الغيوم، وهدرت الرعود، وتشظت البروق: فتاة تلعب التنس؟!...

وحملت الرسائل البرقية الخبر الى عميد كلية الآداب في الجامعة، وكان في حينه **منصور فهمي**، فأرسل من يستدعي الفتاة المتمردة الى مكتبه ليفهمها بأن تصرفها هذا يعتبر فضيحة.

وبينما راحت الالسن تجتر «الفضيحة» في الوسط الجامعي، كانت الطالبة تنقل الحكاية الى والدها، الدكتور **احمد السعيد**... اصغى اليها باهتمام ثم سألها:

**– الم ادفع لك قسط الرياضة؟**

قالت:

**– طبعا.**

**– إذاً، من حقك ان تمارسي الرياضة وليس هناك قانون يمنع ذلك.**

* * *

كانت تلك مواجهتها الأولى. وبالطبع، لم يكن ذلك الموقف الوحيد الذي وقفه ابوها، الى جانبها، مشجعا بل محرضا على الاستقلال والتحرر... فقد دأب الدكتور على تربية فتياته، وكأنهن فتيان. وهو نفسه، كان رائدا في الطب والنضال الوطني. واعتقل بسبب مواقفه التحررية وخطبه النارية. وظل قيد الاعتقال مدَّة طويلة، عاشت خلالها اسرته في قلق انتظار عودته.

* * *

وكانت العائلة تتألف من الوالدة **زينب** وهي ابنة **محمود باشا طلعت** سيدة مرفهة، ولكن تقليدية. ثم الشقيقة الكبرى **كريمة** (اول سيدة تعين وكيلة وزارة) **وعزيزة** (خريجة جامعة لندن) **وامينة وعظيمة** (تخصصت في طب جراحة العيون) ثم الاخ الاصغر **مصطفى**.

وتذكر السيدة **امينة** عن امها رقتها، وعذوبة شخصيتها، وانصرافها عن شؤون العالم الخارجي الى رعاية الاسرة، محور عنايتها ومركز تفكيرها. وفي ذلك كانت عكس زوجها، الذي ترك تأثيرا اعمق في نفوس اولاده، اذ شاء ان تستقل الفتاة في كل شأن، وغرس في صدور بناته نزعة الاستقلال الذاتي والشجاعة. وكان يدفعهن الى الاعتماد على النفس في كل الامور، حتى في اختيار الملابس،

والحاجات الشخصية: «**كان يرسلنا الى صيداوي باشا (وهو تاجر ثياب وصديق للعائلة) كي نختار ملابسنا من مخزنه. وكم كان ذلك مربكا لنا! كنا نبكي احيانا من شدة الضيق والحيرة. والصيداوي يشجعنا بقوله: «ابوكم عارف انكم كبار». ولم يكن ابي يكتفي بذلك، بل ينتظر حتى نعود. فيحكم نظارتيه، ويقوم بعملية تدقيق ونقد لذوقنا، وحسن اختيارنا...**»

هذا الاب نفسه هو الذي بدل مقر سكناه وعمله، فانتقل من **اسيوط**، الواقعة على بعد مائتين وخمسين كيلومترا جنوب القاهرة ليقيم في العاصمة، وذلك حالما سمع بافتتاح اول معهد ثانوي للفتيات.

ثانوية **حلمية** للبنات في **شبرا** كانت اول مدرسة تتبع نظام مدارس البنين. مديرتها **انصاف سري** زوجة **منصور فهمي**.

هنا انهت **امينة** دراستها الثانوية، ثم انتقلت الى الجامعة، لتتخصص في الادب الانكليزي. وكانت لا تزال في سنتها الجامعية الاولى حين توفي والدها، وكان الأخ الأصغر في الخامسة من عمره. فتعهدت شقيقاته تربيته...

«**في الواقع**» تقول **امينة**: «**كنا نربي بعض**». وهذه تجربة قاسية. لكنها ضاعفت شجاعة الشابة الطامحة، وزادتها تحديا واحتراما، **فأمينة** التي ولدت ابان اندلاع الحرب العالمية (مولودة في ٢٠ حزيران عام ١٩١٤) كانت لا تزال في طراوة العود حين ادركت صعوبة الواقع، فهي لن تستطيع متابعة دراستها، من دون ان تقوم بعمل يرد عليها بعض المال. وهكذا بدأت مع الصحافة في تلك المرحلة المبكرة،

كما انفتح لها باب آخر تعرفت بواسطته الى النضال النسائي، وكانت تحمل مشعل طليعته **هدى شعراوي**؛ فقد اختارتها **هدى هانم** لتقرأ خطاباتها، وتشارك في المؤتمرات والاجتماعات، وهذا القرب من رائدة النساء في العالم العربي، وضعها في موقع، تستشرف منه اوضاع المرأة، لا في مصر وحسب، بل وفي العالم... كما جعلها في مرحلة مبكرة من حياتها، تعيش في قلب الواقع، وتتعرف الى المشاكل الاجتماعية والانسانية التي تواجه المرأة.

* * *

اما الصحافة، فقد جاءتها ثائرة، متمردة، وتمردها الاول كان على نظام الامتحان. وتروي أنها نشرت مقالا وقعته باسم «**مصرية**» هاجمت فيه اسلوب الامتحانات في الجامعة. وقلمها المميز لفت اليها الانظار، فتلقت دعوة من **مصطفى امين** كي تمتهن الصحافة، وعملت معه، ومع **محمد التابعي واحمد ماهر** (قبل اغتياله) في مجلة «**آخر ساعة**». وكان راتبها في حينه ثلاثة جنيهات في الشهر تتقاسمها مع شقيقتها **عظيمة**. ولاحظت ان الرجل الذي يقوم بالعمل نفسه يقبض اضعاف اجر المرأة، وبالطبع لم تصمت، بل صبت ملاحظتها تلك في تيار نضالها. وراحت تطالب بمساواة في الأجور بين الرجل والمرأة...

* * *

لم تكن الصحافة في تلك المرحلة، مهنة المرأة. خصوصا اذا جاءت من اسرة معروفة. وقد واجهت سيدتنا صعوبات كثيرة كانت تتغلب عليها وتتجاوز الحملات الهجومية التي تشن ضدها. ثم بدأت، خطوة

خطوة، تثبت وجودها وتصبح مثلا لكل من تتوق الى التحرر وتخطي التقاليد.

* * *

خلال فترة قصيرة، لمع اسم **امينة السعيد** في الصحافة المصرية، وهذا ما دفع عميد **دار الهلال. اميل زيدان**، الى أن يسند اليها رئاسة تحرير المجلة الجديدة التي سيصدرها. وقد استغرق الاعداد لمجلة «**حواء**» سنتين، وصدرت في اول شهر من العام ١٩٥٤ تحت اسم «**حواء الجديدة**» وكانت تطبع منذ البدء، سبعة عشر الف نسخة ارتفعت في احدى قفزاتها الناجحة فيما بعد، الى مائة الف. وكانت «**حواء**» مثلما ارادتها رئيسة تحريرها، رسالة الى المرأة للنهوض بها وتحسين وضعها، لا لتسليتها وحسب... إذًا، القضية وجدت لها منبرا رفيعا وظلت **امينة السعيد** في كرسي الرئاسة مدة خمس وثلاثين سنة، ظلت خلالها «**حواء**» المجلة النسائية الاولى في العالم العربي، يقرأها الرجل مثلما تقرأها المرأة.

* * *

مع «**حواء**» كتبت **امينة السعيد** خطوة النجاح بل التفوق لأول امرأة مصرية تمتهن الصحافة. ومن قبلها كانت هناك اسماء ساطعة مثل **روز اليوسف** صاحبة المجلة المعروفة باسمها، **وبتسي** أرملة **سليم تقلا** وهما في مرتبة اصحاب الصحف، والمجلات ولم تمتهنا العمل الصحفي. كذلك كانت هناك مجلات اخرى، بقيت خارج المفهوم الفني والمهني، اذ كانت كل كاتبة يخطر لها التعبير عن رأيها، تنشئ مجلة، تكون هي صاحبتها، ورئيسة تحريرها، والمحررة فيها. وتلك

المجلات كانت تعمر من شهر الى بضع سنوات، ثم تنطفئ مع انطفاء جذوة الحماسة الاولى، او نفاد المال.

* * *

وحياة **امينة السعيد** العائلية ناجحة وتشكل بذلك، خلفية قوية تدعم نجاحها العملي.

كانت لا تزال طالبة جامعية حين التقاها **احمد زين العابدين** واحبها، وكان لها من العمر تسع عشرة سنة.

ولما خطبها من والدها، قوبل بالرفض، بسبب صغر سنها، ولأن الاب كان يريد أن تنهي ابنته دراستها الجامعية قبل ان تبدأ حياة زوجية. لكن الرفض لم يكن نهائيا، وتمت الخطبة عام ١٩٣١، وكان على الشاب **احمد**، المعيد في كلية الزراعة، ان ينتظر ست سنين، اي حتى العام ١٩٣٧ ليحقق زواجه بفتاة احلامه. وكان لها مثال الزوج الراقي، يتحلى بالشجاعة، والحكمة، والهدوء، ويحترم المرأة ويقدرها بل يفاخر بها، ولا تضايقه شهرتها، وتسليط الانوار على شخصيتها من خلال حياتها العملية. وظل يناديها **امينة هانم** إمعانا في احترام شخصيتها، وتعزيز قدرها. ووقف الى جانبها في ازمات مهنية قاسية، بل «**ظل صامدا خلفها في كل المعارك، وكان عمودها الفقري**»، حسب تعبير **مصطفى امين**.

وزواجهما اثمر ابنة وولدين هم: **انجي**، تحمل دكتوراه في الزراعة وعلم الارض. **وحازم**، مهندس ومدير عام لاحدى الشركات الكبرى، **وباسل** دكتور في الزراعة والدواجن وعلم الحشرات. وحتى كتابة هذه الاسطر، كانت السيدة الرائدة قد اصبحت جدة لخمسة

احفاد، تحبهم كثيرا، لكنها لا توافق المثل الشعبي: «**ما اعز من الولد الا ولد الولد**». **فرأيها: «اننا نتعلق بالاطفال لانهم يعودون بنا الى اجمل مراحل عمرنا. نحبهم بقدر ما نحب اولادنا، لا اكثر.. وربما نتساهل معهم اكثر مما تساهلنا مع اولادنا».**

* * *

اعود الى حياتها المهنية، والتي ملأت كل دقائقها بالنجاح والاعمال المثمرة. وكانت مستشارة **لدار الهلال**، وعضو مجلس الشورى اي ما يعادل مجلس الشيوخ ولها برامج توجيهية في الصحافة والاذاعة، والتلفزيون تطل من خلالها على الجمهور العريض، الذي لم يغب مرة عن مدى اهتمامها.

والسيدة **امينة** اول مصرية تشغل مركز رئيسة مجلس ادارة **الهلال** وبقيت في هذا المنصب سبع سنين، حتى اقيلت بحجة بلوغها سن التقاعد. (وهناك كتاب ذكروا ان اقالتها كانت بسبب خلافها مع الرئيس الراحل **انور السادات**) كما انها اول مصرية تنتخب في المجلس التنفيذي لنقابة الصحافة واول نقيبة للصحافة – وذلك بالنيابة مكان **صلاح سالم**.

انه تلخيص سريع لبعض المراكز الهامة التي شغلتها، وقد رفضت رئاسة تحرير «**الاخبار**» حين عرضت عليها في عهد الرئيس **عبد الناصر**، وصاحب العرض كان **مصطفى امين**.

* * *

وما رأي الرائدة في الجيل الجديد من الصحافيات؟

طرحت السؤال عليها في جلسة خاصة، جمعتنا في دارتها في

القاهرة، فقالت بصراحة، انها غير راضية عن الجيل الجديد، الذي «**ولد وفي فمه ملعقة، بل ملاعق من ذهب**»، واعتبرت ان الشعلة التي حملتها مع بعض الرائدات، قد أنطفأت جذوتها، ذلك لأن الايام تحولت كذلك الاهداف.

**– وهل اخمدت السنوات والاحزان نيران ثورتها؟**

**– طبعا لا...**

قالت، وكأن السؤال استفزاز ترفضه:

**– اني في ثورة دائمة وفي تصادم مستمر مع الرجعية. وسوف ابقى كذلك، الى ان تصلح الامور.**

* * *

هذه الطاقة المتفجرة بالحيوية والتصميم، هي السبب الاساسي في نجاحها، وفي تحقيقها عدة قضايا، اقامت لها حملات صحافية، واستثارت لها الرأي العام؛ فقد نجحت في اقناع المحكمة الشرعية في مصر، بمنع تعدد الزوجات. واقر ذلك المصلح والامام الاكبر **محمد عبده**، اذ «**حدد تعدد الزوجات، ومنعه الا في ظروف يراها القاضي**». وقد كافحت لخفض نسبة الامية بين النساء. وحققت نجاحا في ذلك. وان لم تبلغ غاية طموحها لأن المرأة العصرية لم تعد تخوض معارك التحرير «**وهي تجني ثمرة اتعاب سواها، ونتائج انجازات الاجيال السابقة. وبات همّ الفتاة اليوم، الزواج والمظاهر. وبذلك تكرس الصورة التي يريدها لها الرجل...**»

وفي رأيها انه «**لا خلاص للمرأة الا بالنضال، وعدم اليأس، بل**

**تكرار المحاولات. فالرجل لن يساعد المرأة في تحقيق ما تريده من تقدم وما تسعى اليه من طموح...»**

وهذا لا يعني ان الحملات السابقة لم تتقدم بالمرأة خطوات هامة، ففي مصر اليوم ربع مليون امرأة موظفة، وقد اصبحت المرأة وزيرة، وتسلمت مناصب مهمة اخرى. كما حققت نجاحا ملموساً على صعيد قوانين الاحوال الشخصية، والعلاقات العائلية.

وكانت السيدة **امينة** على اتصال دائم بما يحدث في العالم، شرقه وغربه، وقامت برحلات عديدة زارت خلالها معظم بلدان الارض، ولم يَبْقَ خارج خريطة تنقلاتها سوى **اوستراليا والصين**. وسجلت انطباعاتها عن رحلاتها في كتب، مثل كتابها «**مشاهد عن الهند**». وهو يضم الى الانطباعات الشخصية، ملاحظاتها عن الصراع بين المسلمين والهندوس وقد نشر الكتاب للمرة الاولى عام ١٩٤٦ . ولها ستة مؤلفات اخرى بين قصص وروايات عدا ترجمات من الادب الانكليزي بينها الرواية الشهيرة «**نساء صغيرات**».

* * *

وهل نالت الرائدة الكبيرة التقدير الذي تستحقه؟ اطرح السؤال وانا اطالع لائحة التكريم، والاوسمة التي استحقتها، وبينها وسام الاستحقاق من الدرجة الاولى، منحته من الرئيس **جمال عبد الناصر** عام ١٩٦٤ . ووسام الجمهورية من الدرجة الاولى عام ١٩٨١ .

وتروي الأستاذة **امينة** قصة هذا اللقاء التاريخي في مقال لها نشر في صحيفة «**أخبار اليوم**». وخلاصة ما جاء فيه أنها التقت الرائدة الكبيرة عام ١٩٢٥، حين كانت طالبة. بمدرسة **شبرا** الثانوية للبنات،

إذ قصدت **هدى شعراوي** المدرسة، باحثة عن طالبات متطوّعات يقمن بتمثيل لوحات فنية أو مسرحيات قصيرة، كمهرجان خيري اعتادت إقامته لدعم اعمالها الخيرية المنوّعة. فوقع اختيار الإدارة على **أمينة**، التي تتقن اللغة العربية، بفصاحة، خلافاً **«لبنات الذوات»** اللواتي يجهلن لغة بلادهن، مما كان يضطر المشرفين على تلك الحفلات أن يكتبوا النصوص العربية بالحرف اللاتيني. وقد اعجبت السيدة شعراوي بإلقائها، واختارتها فوراً لتشارك في المهرجان.

وتكمل السيدة **أمينة** حكايتها فتقول: **«منذ ذلك اليوم احتضنتني هدى شعراوي، وابقتني بجوارها، في معظم أوقات فراغي. وبالتدريج، ازدادت ثقتها بي، فكانت تعهد إليّ أن انوب عنها في إلقاء خطاباتها السياسية، والتي اعتادت ان تلقيها في المناسبات العامة... ولم أفارقها طوال السنين التالية، حتى يوم وفاتها عام ١٩٤٧».**

---

- مقابلة شخصية معها.
- «خمسون سنة حب» من مجلة الشرقية ت [١] ١٩٨٢ .
- مجلة الشرقية شباط ١٩٧٥ .
- مجلة الرائدة - آب ١٩٨٤ كلية بيروت الجامعية.

# شفيقة قره كلا

«اخترت ان أخسر العالم اذا كان ثمناً لكسب التحدي الكبير».

كان المفروض ان أكتب عن هذه العالمة، قبل ربع قرن من هذا التاريخ؛ فقد التقينا، في أثناء زيارة قامت بها للبنان، في جولة علمية، عالمية، استغرقت من وقتها ثماني سنوات، قضتها في البحث، والدراسة والتحليل، لموضوع بدأ يأخذ أهميته في السنوات الاخيرة... وكانت هي إحدى الرائدات في ادخاله المختبر العلمي، الطبي، ولفْت النظر اليه، من خلال الكتاب الذي ضمّنته نتيجة بحثها وتجاربها، ونشرته في اميركا عام ١٩٦٧ تحت عنوان: «**الاجتياز الى الخلق والحس الاعلى للادراك**» (**أو ما يُعرف بالحاسة السادسة**).

ومع ان المقابلة مع الدكتورة **شفيقة قَـرَهْ كُلاّ** تمّت في جو من الانس واللطف، والمكاشفة الصريحة، الاّ انها طلبت اليّ، في نهاية المقابلة، أن لا أكتب عن الموضوع، لانها في بدء طريق البحث، ومن الافضل ان تُقطف الثمرة، بعد النضج. ووعدتها بأن تبقى المقابلة شخصية برغم التأثير العميق، الذي خلّفته أخبارها، في نفسي...

وسافرت هي بعد أيام، متابعة جولتها، ورحت أبحث عن كتب، ودراسات، تزيدني علما ومعرفة، في موضوع «**الحاسة السادسة**» والذي يتجاوز كل القيود التي كبّلت البشرية، وحصرتها في دائرة الحواس الخمس.

ورحت استعيد اخبار العالمة، من خلال ما كتب عنها، وما يعرفه الاقارب والاصدقاء المقيمون في بيروت؛ ذلك أنها تقدّمت في

الابحاث ووضعت عدّة مؤلفات، وباتت اعمالها مراجع يعود اليها العلماء، ويستشهدون بالخبرة الموثوق بها... كما أن هذا العلم بات يتصدّر واجهات الاهتمامات العلمية، والانسانية، إذاً فمن حق الطبيبة، ان تأخذ مكانها بجدارة في موكب الرائدات...

هذا ما كنت أفكّر فيه، حين التقيت قريبة لها، بالمصادفة. وكان من الطبيعي أن أسألها عن الاخبار الجديدة. وفوجئت بها تقول: «**إذاً بلغك الخبر...**»

سألَتُ بدهشة:

**– خبر ماذا؟**

**– وفاتها... قبل أسبوع توفيت في حادث. وخسر الطبّ احدى رائداته.**

وجمدت الكلمات فوق لساني، وأنا أفكّر: – لماذا؟... وما الذي دعاني الى الكتابة عنها في هذا الوقت بالذات؟...

هل لعبت الحاسّة السادسة دورها، في اتمام الوعد بالكتابة؟... أم أنها المصادفة؟... مجرّد مصادفة؟

* * *

ولا بدّ، من العودة الى الاطلالات الاولى: فقد ولدت **شفيقة** في بلدة ماردين بتركيا. أبوها **كريم قَـرَهْ كُلاّ**، كان يعمل في حقل الصيدلة، وأمها **بدور مراد** الطالبة الأولى التي تتخرج من معهد مستحدث في بلدتها. ومع ان الذين كتبوا سيرة **شفيقة** لم يثبتوا تاريخ ولادتها، الا ان قريبة لها تقدّر انها مولودة عام ١٩١٥ . وكانت لا

تزال طفلة حين اضطرت العائلة الى الهجرة القسرية الى شمال الموصل، في العراق، هربا من اضطهاد الحُكم التركي، وظلّ الاب سنتين، متواريا في منطقة جبلية، تسيطر عليها جماعة اليزيديين. ولقائدهم **حمو** يعود الفضل في انقاذ العائلة من الموت.

وبعدما اطمأن الاب الى سلامته وسلامة العائلة، راح يعمل مقاولا في بغداد. وفي عام ١٩٢٥ أرسل **شفيقة** مع أختها الكبرى **ماري**، الى القسم الداخلي في المدرسة الانجيلية، ببيروت، ولم يأبه لتعليق الاقارب والجيران، بأن علم البنات خسارة، والافضل توفير المال لشراء جهاز العرس. حسم الاب الامر بالقول:

- العلم سيكون جهاز بناتي.

* * *

تخرّجت شفيقة من المعهد الثانوي عام ١٩٣٢ وتوجّهت الى كلية بيروت، وكانت في بدء انشائها؛ فتسجّلت في قسم العلوم، وأظهرت ذكاء مميّزا... كتبت فيه زميلتها، الرائدة **جمال كرم حرفوش**: **«عرفتها منذ نصف قرن ونيّف، خلاصة الصدق والوفاء والفضيلة. مرهفة الحسّ، متوقّدة الذهن، سريعة النكتة. شعلة خيّرة وهّاجة، أنزلتها الشهب المتعالية من كبد السماء، لتكون في الأرض فيضا من الانسانية والمحبة، ومن العبقرية الفذّة، والتفاني في تحصيل المعرفة، وفي البحث الدؤوب عن الحق والخير والجمال»**.

سنة ١٩٣٤ سجّلت حدثين هامين في حياة شفيقة؛ فقد دخلت صف السنة الثالثة في الجامعة الاميركية ببيروت، وخسرت والدها في حادثه مفجعة؛ ومعه، ذهب المال. وتشرّدت العائلة. لكن الطالبة

الرصينة المؤمنة، لم تترك المصيبة تتغلّب عليها، بل نهضت بكثير من التحدّي والشجاعة، وصمّمت على متابعة طريق العلم، حتى تخرجت من معهد الطب عام ١٩٤٠ . وسافرت الى بغداد، حيث عُينت من وزارة التربية مُشرفة على الاحوال الصحية في المعاهد الرسمية. وفي الوقت ذاته، فتحت عيادة خاصة بها، حين لاحظت الحاجة الماسّة الى وجود امرأة في حقل الطبابة. لكن ذلك لم يكن الاستقرار النهائي للعقل القافز أبدا الى الامام، المتجوّل في الكون، المتواصل في البحث والمعرفة. فبعدما مارست عملها طوال خمس سنوات، قررت ان تسافر الى **سكوتلنده**، لتتابع اختصاصها في طب الامراض العقلية، الموضوع الذي لم يفارقها مطلقا؛ فقد كانت في حالة دائمة من التساؤل: **كيف يفكر الانسان؟... وكيف يعمل العقل؟...**

والتحقت بجامعة **ادنْبره**، وكان العام ١٩٤٦، أي موعد رجوع الاطباء العائدين من الحرب، وبالطبع، لهم أفضلية القبول في بلادهم. لكن تميّزها، جعلها تربح الرهان، وكانت الطبيبة مساعدة في مستشفى ادنبره الملكي، قسم الامراض العصبية والعقلية. وعملت تحت اشراف احد أركان هذا الاختصاص، في حينه، **دافيد هندرسون**. وقد حصلت في مطلع العام ١٩٤٨ على دبلوم في الطب النفسي، من كلية الجراحة الملكية في بريطانيا. كما نجحت عام ١٩٥٠ في امتحان اهّلها لتصبح عضوا في الكلية الملكية الطبية – ادنبره. وفي العام ١٩٥١ حصلت على حق تسجيل اسمها في جمعية الطب والجراحة في بريطانيا. وعملت في مستشفى **رانويل** للطب العقلي مدة سنة، قبل أن تحصل على منحة من جامعة **ماغيل**

في كندا، أهّلتها للعمل ثلاثة اعوام ونصف، كمستشارة للامراض العقلية والنفسية، ومعاونة للطبيب العالمي، في جراحة الاعصاب: **ويلدر بنفيلد**. النجاح في ركابها، وها هي عام ١٩٥٦ تدخل الولايات المتحدة الاميركية، بدعوة خاصة، منحت على أثرها الجنسية، والتحقت بالمركز الطبي، بجامعة ولاية نيويورك برتبة استاذ مساعد.

* * *

لكن نقطة التحوّل الهامة في حياتها كانت لا تزال في انتظارها عند أحد المنعطفات. بل كانت علامة التحدّي التي واجهتها، وأخرجتها عن المسار المألوف.

قرأتْ **جوزف ميلارد** عن **ادغار كايس**، الرجل الغامض، صانع المعجزات. وكان هذا الكتاب منطلقها لتبدأ سلسلة ابحاث في موضع الحاسة السادسة، استغرقت ثماني سنوات. في الخطوة الاولى، جمعت نتيجتها في كتاب احدث ضجّة كبرى في الاوساط العلمية، وعنوانه: «**الاجتياز الى الخلق، والحسّ الاعلى للادراك**»، أو الحاسة السادسة.

وتقول الدكتورة **شفيقة** في تقديمها لهذا الكتاب: «**ادغار كايس كان تحديا لنظرتي الطبية والعلمية. فقد عرفت عن كثب كل الحالات والظواهر المرضية في العقل البشري. ولم اجد في واحدة منها حالة تشبه ما قرأته عن كايس. كذلك عجزت كل المعرفة التي اكتسبتها، في خلال سنوات عملي في حقل الطب العقلي والنفسي، عن شرح تلك الظاهرة. كانت أمامي قضية، وكان هناك**

**تحد، وفكرت في اني أمام أحد أمرين: فاما أن اتجاهل كليا هذا الموضوع، أو أن أقبل التحدّي، وأعترف بأن هناك أشخاصا وهبتْهم الطبيعة قُدرات خارقة لم يتمكّن العلم من شرحها وفهمها».**

واختارت الطبيبة التحدي، وخطّ الجهاد الطويل. وانطلقت تبحث عن الحقائق التي لم يستطع ان يحدها العقل، ولا تمكّن العلم، بما توصل اليه، من فهمها، وتفسير ماهيتها: «**وشعرت بأني على مفترق طرق في حياتي وفي عملي؛ فقد كانت امامي فرصة جديدة لأصبح مديرة الأبحاث النفسية في معهد طبي كبير، الى جانب كوني استاذة. وفي ذلك، بالطبع، تقدير كبير، وشرف مهني، وامكان بلوغ أرفع القمم في مجال اختصاصي، ضمن الحدود المألوفة والمعروفة. وهناك، من جهة ثانية، الباب الآخر، الذي ينفتح على كل ما هو مجهول، ومغلق وغامض في محيط المعرفة الإنسانية. فهل اختار الفرصة السهلة المؤمّنة؟... واخسر متعة الخوض في المجاهل اللامحدودة، للعقل البشري؟... ولدهشتي اكتشفت اني اتخذت القرار من دون اي تردد... فقد كنت دائما صاحبة عقل لا يخشى المغامرة، والسفرّ في طرق غير معبدة... اخترت، ان «اخسر العالم» اذا كان ثمنا لكسب التحدي الكبير...».**

* * *

مرة اخرى، اقتطف شهادة من زميلتها الدكتورة حرفوش: «**سبقت بمفهومها الانساني الفذ جميع اترابها في المدرسة، ابعادا شاسعة... نحن جميعا بقينا في ارض العبودية نبحث عن التقدم العلمي في**

**المادة، فتبهرنا مستجدات التكنولوجيا الحديثة... واما شفيقة، الحساسة، الذواقة، فتعالت نحو الأثير، تبحث عن اسرار الطبيعية الخارقة، يستمد منها العالم وهج العبقرية والنبوغ. ويتلقى المكتشف والمخترع تعليمات، القدرات الموجهة في العقل الباطن، داخل الذات البشرية، ليعطي، ويبدع ما لم تره عين، او تسمع به أذن، او يخطر في بال انسان»...**

* * *

وقد حددت العالمة مفهومها للحاسة السادسة في كونها «**القدرة على ملاحظة، واختبار حدود ومقاييس غير مرئية، مع انها موجودة في محيطنا، وحولنا. وان الجنس البشري لم يتوصل بعد، الى ادراكها او الشعور بها... وكلما ازداد عدد القادرين على اختراق «حاجز الحواس الخمس» تنجلي معالمها، ويصبح ممكنا ان نطبق نتائج المعرفة المرجوة لبناء مجتمع انساني اكثر إبداعا وخلقا...**».

وقد اكتشفت، نتيجة ابحاثها، ان الحاسة السادسة هي اكثر انتشارا مما كان معروفا. وان الوف الناس، في شتى اصقاع المعمور، درجوا على استعمال طاقات الحس المدرك في شتى المجالات. واذن فهي:

**– إما أن تكون ظاهرة طبيعية في عملية النشوء والإرتقاء،**

**– او انها ظاهرة طارئة على الوعي الانساني، وهي آخذة في الازدياد في عصرنا الحالي.**

وثبت للعالمة، نتيجة الاختبار العلمي، والذي لا يرقى اليه الشك، أن الحساسين (اي المتميزين بهذه الحاسة) هم على انواع. وتكشفت

لها قدرات متعددة لمواهب الحساسين منها: **البصيرة – او الادراك من دون الاستعانة بالحواس الخمس. توارد الخواطر، قراءة الافكار، او الوحي عن بُعد، قياس الظواهر او قوة التعامل النفسي، المعرفة المسبقة للاشخاص، والامكنة والاشياء.**

وتكون بذلك، قد رسمت خريطة المستقبل، لعلماء يعودون الى التركيز على اهمية الانسان، بعدما خرج العلم الى الكون والمجرات، يخترق الفضاء، ويسجل انتصاراته الخارجية:

**«علينا ان ننطلق لدراسة أبعاد جديدة للعقل البشري، من دون اي خوف، بكثير من الموضوعية، وصفاء الذهن، والوعي مؤمنين بأن ما كان مستحيلا بالأمس، سوف يتحقق في الغد... الانسان هو واسطة، ولا حد للطاقات الكامنة فيه...»**

وتقول في مكان آخر:

**«إننا نجتاز القرن العشرين، مأخوذين بما حققه العلم، حتى غابت عنا صورة الإنسان نفسه، كمولد، مبدع، واع ومدرك. لذا يتحتم على هذا الانسان ان ينهض، بسرعة، كي يلحق بنفسه. وربما كانت الحاسة السادسة، الرحبة المدى، الجواب المنقذ من حالة الضياع والانهيار التي يعانيها المجتمع العصري. وكلما تكشفت لنا آفاق جديدة في القدرات الانسانية الذاتية، تتفتح امام الجنس البشري عوالم جديدة تمكنه من الغلبة والانتصار، وتبعث في نفسه حوافز جديدة للخلق والإبداع...».**

* * *

بالطبع، لم تتوقف المؤلفة عند كتابها الاول، على اهميته، بل تابعت البحث والنشر، فأصدرت بالإشتراك مع الكاتبة والفيلسوفة **فيولا بتيت نيل** كتابا عنوانه: من **خلال الحجاب**.

وقبل وفاتها، دفعت الى المطبعة كتابا آخر.

وكانت، في اواخر ايامها، تشغل مركز رئيسة ومديرة البحوث في مؤسسة الحس الاعلى للإدراك في «**بفرلي هيلز**» بولاية **كاليفورنيا**.

* * *

وفي الواقع ان رحيلها كان قبل الاوان، وجاء صدمة لكل من عرفها، وتعاون معها، اذ كانت في اوج النشاط والابداع، وقد بلغت مرتبة رفيعة، وحصلت على تقدير واعجاب الزملاء، الذين اعتبروها رائدة، اختارت المركب الصعب، من دون ان تخشى اخطار العاصفة. وقد توفيت العالمة في منزلها، في بفرلي هيلز إثر حادث انزلاق بتاريخ ١٣ آذار، عام ١٩٨٦ . تاركة لمن يأتي بعدها، من العلماء، ان يتابع سعيها، وتحقيق توقعاتها، من ان اهم اكتشافات الغد سوف تكون في العوالم الجديدة، داخل الانسان. هذا الانسان، الذي ملأ كل ذرة من وقتها، وكيانها وعلمها.

والطبيبة التي كرست عملها من اجل «**الانسانية، لكي تعي مستقبلها، وتنهض، لتكتشف العوالم الداخلية والخارجية لحالة وعيها المتفوق**» **رحلت، وفي ضميرها خوف على الانسان، الذي يمارس اللعبة المدمرة له ولعالمه: «ان مجتمعنا الحاضر يسير في طريق تصادمي نهايته تدمير الانسان» لذا، تهمس كلمة اخيرة، تختارها من الشاعر كبلنغ، وكانها خشبة الخلاص الاخيرة: «همسة،**

واحدة، أبدية، تتردد في الليل، وفي النهار، بأن هناك شيئا خفيا، فانهض، وابحث عنه. قم، وانظر خلف التلال، هناك شيء ضائعٌ خلف التلال، ضائعٌ، لكنه ينتظر قدومَك، فانهض...»

---

- من كلمة الدكتورة جمال كرم حرموش في تابينها.
- كتاب راندات تاليف الدكتورة ماري صبري.
- الاختراق باتجاه الإبداع - تاليف د. شفيقة قره كلا.

# أنـديرا غاندي

«إن كل قطرة من دمي سوف تجري لتنشط
بلدي وتقوّيه»...

ترتفع قامتها بشموخ، ويهبط ظلها، فيكاد يغطي القارة الهندية.

إمرأة من هذا العصر، تجبر العالم على إعادة النظر في معطيات المرأة.

من قلب التاريخ تطلع... من أعماق حضارة يزيد عمرها على خمسة آلاف سنة.

وتأتينا، حاملة ذلك الإرث المهيب، متطلعة إلى آفاق من المستقبل، بعيدة، بل تكاد تكون مستحيلة.

تلف جسمها بالساري، اللباس التقليدي لنساء بلادها، فتبدو فيه فريدة التأنق والعظمة.

إبنة **جواهر لال نهرو** هي، إبنة الهند، ماضيها وحاضرها... فوق كتفيها الشامخين، تحمل هموم سبعمائة مليون نسمة، يشكلون الفسيفساء الهندية التي تتألف من ديانات متعددة أهمها الهندوكية، البوذية والإسلام؛ كما تحمل آلام ستمائة مليون جائع من شعبها، وتنفق الساعات الطويلة، وتجتاز المسافات الجغرافية والسياسية، كي تؤمّن لهم الشبع، مع الكرامة.

* * *

**أنديرا غاندي... أو أنديرا ياريا دارشيني... أو «الفتاة التي يحلو النظر إليها».**

هذا ما يعنيه الاسم الذي أطلقته عليها عائلة **نهرو** المتجذرة في أرض «اللّه أباد» من مقاطعة كشمير.

**وأنديرا** ولدت في «بيت السعادة» في ١٩ تشرين الثاني من العام ١٩١٧؛ وكانت جدتها، الشديدة التحفظ، تتمنى أن يكون المولود ذكراً، لكن الجد اعترض بشدة: «**سوف تكون أفضل من ألف صبي...**» وكان هذا الجد أشهر مواطن في تلك المنطقة، كما أن عائلة **نهرو** تمد جذورها في قلب التربة الهندية، وتتغذى بالتقاليد الروحية النابعة من الأعماق، أو المتناثرة في الأجواء.

* * *

المرحلة التي استقبلت المولودة الجديدة، هي من أهم المراحل التاريخية في الهند. فقد أعلن المهاتما غاندي العصيان المدني، وثورته السلمية ضد أعظم دول الانتداب، بريطانيا. وغاندي صديق نهرو، ورفيقه في النضال.

والطفلة الوحيدة المدللة تعيش وسط هذه الأجواء، وتلتقط حواسها كل ما يرشح من كلام ومسلك، وتحتفظ به في قلبها.

و«**بيت السعادة**»، الذي لآل **نهرو**، تعود الحياة الأرستقراطية. لكن التحولات السياسية والمبادئ التي وضعها الزعيم المتقشف ألزمت العائلة بتبديل أحوالها، وتغيير نسق عيشها.

ومع أن الطفلة **أنديرا** تابعت دراستها في المعهد الإنكليزي، إلا أنها خضعت لقرار أبيها، حين فرض على العائلة نمطاً من التقشف جعل أفرادها يتخلون عن كل ما هو أجنبي الصنعة: «**حتى دميتي أحرقتها.. وبكيت**».

هذا ما تذكره أنديرا في كتاب مذكراتها «**حقيقتي**» وتتابع: «**كانت حفلة حماسية، أحرقنا فيها ثيابنا ومقتنياتنا الأجنبية**». وبعد ذلك، صارت ترتدي ثوباً من الحياكة اليدوية الخشنة، يسبب لها الضيق، والحرج بين زميلات المدرسة. إلا أنه ربى في نفسها نزعة تقشفية واباء وطنياً.

* * *

قامت قيامة العائلة ضد **نهرو** وثورته، لكن زوجته **كامالا** ساندته. وقفت إلى جانبه، بل خرجت في التظاهرات والمسيرات الوطنية، وهي مُعْتلَّة الصحة، بسبب داء السل الذي لازمها، وقد سقطت خلال إحدى المسيرات، فاندفع أحد الشباب يسندها، ويساعدها على النهوض. ولم يكن ذلك الشاب سوى **فيروز غاندي**، الطالب الفقير، والذي قدّر لأنديرا فيما بعد أن تعمق معرفتها به، ثم تعلن رغبتها في الزواج به، برغم الرفض الذي واجهته من الزعيم الكبير **المهاتما غاندي**، الذي رأى في إقدام الفتاة على ذلك الزواج خرقاً للتقاليد التي سارت عليها العائلة، حتى أنه أمر بترحيلها عن البلاد، إن هي تزوجت **فيروز غاندي**. لكن الحملة التي شنتها السلطة على قادة حركة التمرد (وغاندي في طليعتهم) حالت دون تنفيذ تلك الأوامر.

* * *

قبل الاسترسال في الكلام على حياة **أنديرا** العائلية، لا بد من لفتة إلى الخلفيات العلمية والتربوية التي تركت انطباعاتها في نفسها وفكرها.

لقد تأثرت كثيراً بشخصية أبيها، وبحركة القائد الكبير **غاندي**، وقرأت شاعر الهند العظيم **طاغور** وتغلغلت قصائده إلى صميم أعماقها، لتمتزج بكل ما تغذت به روحها من تراث بلادها وحضارتها. كذلك تركت شخصية أمها، بعض التأثر في نفسها، لكن المرض تغلب على الأم، فنقلت إلى سويسرا للمعالجة، وكانت **أنديرا** رفيقتها الدائمة، واغتنمت فرصة وجودها في أوروبا لتتابع دراستها العليا. ولما توفيت الأم، متأثرة بدائها العضال، انتقلت الابنة مع مربيتها أو «ملاكها الحارس» **أغاثا هاريسون** لتتابع دراستها في معهد سمرفيل في أوكسفورد. وهنا، شاءت الصدفة أن تلتقي الشاب الذي صادفته من قبل في إحدى تظاهرات العصيان المدني، في اللّه آباد.

كان **فيروز غاندي** طالب اقتصاد، وسبق أن ذكرت أنه لا يمتّ بأية صلة إلى **المهاتما**. كما أنه لا ينتمي إلى مذهب آل **نهرو**، فهو مَزدكي من أتباع **زرادشت**. لكن **أنديرا** اختارته رفيق الدراسة، والحبيب الذي اتفقت معه سراً على الزواج مهما كان الثمن. ونفذت رغبتها في ٢٦ آذار من العام ١٩٤١، ضد رأي العائلة والأقارب. لكن **نهرو** لم يشأ أن يقف موقفاً سلبياً من الابنة الغالية على قلبه، فحاك بيده الساري (وهو الثوب التقليدي الذي ترتديه نساء الهند) وصنعه من قماش القطن الوردي. وكان وجه الأم غائباً عن المناسبة، إذ رحلت قبل ذلك التاريخ بسبع سنوات.

* * *

حين فقد **نهرو** زوجته، وجد في ابنته الكثير من العزاء، وحلّت

**أنديرا** مكان أمها في مرافقة أبيها، والسهر على راحته، والعمل معه في أدق الأمور. ولم تلبث أن أصبحت حافظة أسراره، ومستشارته في كثير من القضايا. وكانت تجربتها هذه مصدراً للثقة بالنفس، ومنهلاً للمعرفة، ومواجهة التجارب الحيوية والسياسية. وخصوصاً مواجهة الأزمات والمصاعب، والضغط السياسي إلى حد السجن.

لقد أنفق **نهرو**، تسع سنين في السجون، وعلى فترات متقطعة، وكانت **أنديرا** تنتقل بين القصر والسجن. وتتراكم تناقضات التجربة، في ذاتها وتبني عالماً داخلياً صلباً، منيعاً.

وكانت لها التجربة مدرسة جديدة تختلف عن الجامعات والمعاهد التي سبق أن نهلت منها العلم والمعرفة... فهنا، الحياة تشرع لها أبوابها، والحقيقة تواجهها بكل قسوتها.

وكتبتْ في مذكراتها، عن تلك المرحلة:

**«علمني السجن كم من الظلم والاجحاف يرتكب بحق الإنسان. وصرت أقدّر معنى الحرية، خصوصاً عندما اختبرت العيش، أياماً طويلة، داخل الزنزانات المرطبة والمظلمة، حيث كنا نحشر كقطعان الماشية... صحيح أن تلك المرحلة انقضت، لكن الآثار الباقية في نفسي، تشبه الحفر العميقة والجراح المفتوحة».**

ومن السجن، أيضاً خرجت رسائل والدها الشهيرة، والمجموعة في مجلدين، ويقدم لها بعبارة يعتذر فيها من ابنته، لاضطراره الى أن يخاطبها بلغة غير لغتها القومية.

ومن رسائل نهرو الإنسانية، تعلمت الابنة دروساً كثيرة في السياسة، والحياة، والتعامل مع الآخرين، وفلسفة الحكم.

كما اغنت صباها رفقتها الدائمة لهذا الأب النبيل، الذي وجد في الابنة الرفيقة الفكرية والروحية، وغرسة الغد التي أعدها لتحمل المسؤولية الكبرى.

كانت **أنديرا** دائمة الحضور في مجلس والدها، على المائدة، في ولائم السياسيين والرؤساء، تصغي إلى المناقشات وتشترك فيها. ولا شك في أن هذا التمرس الباكر كان أكبر عون لها على فهم ما يجري في الكواليس والمحافل السياسية الدولية...

كذلك كانت ترافق والدها في معظم الرحلات والزيارات الرسمية التي يقوم بها. وهذا ما فتح أمامها باب فهم الشعوب القريبة والبعيدة، وجعلها تقدّر قيمة الهند، ومكانتها في الأسرة الدولية.

والذي سمح **لأنديرا** بحرية التنقل والحركة، انفصالها عن زوجها، بعد مرور خمس سنوات فقط على الزواج الذي اختارته، بكامل إرادتها. وكانت ثمرة زواجهما ولدين: **راجيف** ولد عام ١٩٤٤ **وسانجاي** ولد عام ١٩٤٦ . وبعدما تمّت مراسم الطلاق، انتقلت مع ولديها، لتقيم نهائياً في قصر والدها، وقد أصبحت رئيسة التشريفات فيه.

ولم يكن الزوج فاشلاً، إذ تابع حياته السياسية، وانتخب عضواً في البرلمان عام ١٩٥٢ . وكان يعوض من فشل زواجه **باندیرا** بإطلاق عبارات السخرية من أبيها... لكن **فيروز** لم يعمر طويلاً، إذ توفي على إثر نوبة قلبية عام ١٩٦٠ .

* * *

بلغت أنديرا السن الأربعين من دون أن تكون لها صنعة سياسية معينة. ويعتقد الكثيرون ان مركز أبيها كان وراء بلوغها سدة رئاسة الوزراء بتلك السرعة.

في العام ١٩٦٤ أصيب **نهرو** بجلطة في الدماغ على إثر إلقائه خطبة سياسية. وكانت الضربة صاعقة، وهوى بين ذراعي ابنته، التي لم تعد تبتعد عنه قيد شعرة. وبينما كان الأب يسيّر دفة الحكم من سريره، كانت **أنديرا** تغتنم الفرصة الذهبية التي تضعها في صميم المسؤولية. ولم تطل فترة المرض، إذ توفي **نهرو** في شهر أيار من تلك السنة، مخلفاً الابنة الوحيدة، والمسؤوليات الجسام.

ولم تقف **ابنة نهرو** فوق رأسه، تذرف الدموع، بل تصدت للمهمات الموكلة إليها، ورافقت الطائرة التي نثرت رماد والدها، فوق أرض بلاده، كما تقتضي التقاليد، ولما رجعت من رحلة الحزن تلك، بدأت تذرف الدموع.

* * *

طبعاً لم تتسلم فوراً، رئاسة الوزارة، بل بدأت وزيرة للإعلام في وزارة لال **بهادور شاستري**، خليفة أبيها. لكن الرئيس الجديد توفي فجأة، فطلب إلى **أنديرا** أن تتولى الرئاسة موقتاً ريثما يتوصل أعضاء حزب «المؤتمر» إلى اتفاق.

كان عمرها آنذاك خمسين سنة. خبرتها السياسية محدودة. لكنها لم تلبث أن أصبحت قائدة الملايين، ربما بالمصادفة... او أنه القدر...

* * *

تقول في بعض تصريحاتها: «**بدأت عملي بعقلية ربة البيت، حيثما تصادف شيئاً قذراً أو غير مرتب تنظفه أو تنظمه**».

لكن اتباعها فوجئوا بها تنقلب إلى «مقاتلة» شرسة، وراحت تضرب بأسلوب ذكي ولبق، وتناور وتقاوم خصومها، وتناهض مناوئيها، ولا ترضخ للمساومات...

عام ١٩٧١، واجهت حرباً أهلية جعلت الاقتصاد الهندي يتراجع، فلجأت إلى أسلوب الرجال في الحكم.

لكنها سقطت، كذلك، مثلما يسقط الرجال في الحكم عام ١٩٧٥، حين اتهمتها المحكمة، في اللّه آباد، باستخدام السلطة لأغراض الشخصية. وكان الحكم الصادر بحقها يمنعها من ترشيح نفسها. كما أبعدت عن تحمل المسؤولية طوال ستة أعوام. وفي هذه الحالة، كان المفروض أن تستقيل، لكنها فاجأت الجميع بإعلان حالة طوارئ في البلاد، واعتقلت الشرطة عدداً كبيراً من مناوئيها يقرب من الخمسين ألف شخص.

ومن أقوالها في تلك الحقبة: «**ان المريض يحتاج أحياناً إلى جرعات من الدواء المر، كي يشفى**».

لكن ذلك لم يمنع فشلها في انتخابات ١٩٧٧، واعتقلت بتهمة فساد السلطة. ثم أفرج عنها. وفي السنة التالية أعتقلت، ثم أفرج عنها، لكن خلافاً دبّ بين مناوئيها، فعادت مجدداً إلى السلطة على اثر انتخابات ١٩٨٠ التي كرّستها بطلة.

* * *

من ألقاب **أنديرا** «**السيدة**» و «**الأم**». وأنديرا عاشت أمومتها في طفولة ولديها. وركزت اهتمامها على تربية **راجيف وسانجاي**، ورعايتهما رعاية تامة، تعويضاً لهما من فراق الأب، وحمايةً من قلق عرفته هي أيام طفولتها.

وكانت، برغم مشاغلها السياسية، تصر على الاهتمام بهما بنفسها، وهي مؤمنة بأن الإنسان يستمر في أولاده، كما يتصل، عبرهم، بالجذور البعيدة.

لكن القدر الظالم أبى إلا أن ينغص قلب الأم الكبير، حين فجعها بمصرع **سانجاي** في حادث طائرة عام ١٩٨٠ . وكان هو المتقدم بين الأخوين، لتسلم مقاليد الحكم بعدها.

في تلك الفترة العصيبة، تركزت أنظار العالم على الأم المفجوعة، وتوقع أعداؤها أن تكون وفاة إبنها، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، الضربة التي تقصم ظهرها، وتفقدها التوازن.

لكن المرأة التي رضعت الصلابة والصمود من ضرع الهند - الأم - تمكنت من التغلب على تلك التجربة القاسية وتابعت أعمالها الكبيرة، ومهماتها الجليلة، برصانة وحكمة.

* * *

وحين سئلت، **أنديرا** عن المؤثرات التي لعبت دوراً أكبر في توجيه حياتها قالت: «**هناك عدة مؤثرات، كما أن جهوداً كبيرة تضافرت وساعدتني كي أنجح...**» وأين؟ في الهند، التي تحتاج إلى أعمال جبارة، بل خارقة كي تنهض.

ففي المدرسة تعلمت باكراً كيف تقرأ التاريخ، خصوصاً تاريخ الأشخاص الذين أحدثوا تحولات جذرية في بلادهم. توقفت طويلاً عند **غاريبالدي** إيطاليا، **وبوليفار** أميركا الجنوبية، **وجان دارك** البطلة المثال. كما تعلمت من **غاندي** الشجاعة في التعامل مع الحكام، والتسامح والتروي في حل المشكلات المعقدة واجتياز الأزمات الصعبة.

* * *

وإذا كان **غاندي** مؤسس استقلال الهند، **ونهرو** واضع ركيزتها الحضارية، **فأنديرا** تابعت نهجهما، وحاولت أن تدخل بلادها في عصر التكنولوجيا والعلوم المتقدمة، أو كما قال عنها الأديب الفرنسي **أندريه مالرو**: إنها «**نقلت بلادها من أجواء القرن التاسع عشر، إلى القرن الحادي والعشرين**».

وهذا ليس سهلاً، حين يكون المرء (أو المرأة) حاكماً لبلد يبلغ عدد سكانه سبعمائة مليون نسمة بينهم ستمائة مليون جائع. لكن المرأة تقول: «**ليس بالرز وحده تحيا الشعوب، بل بالكرامة**».

وقد سعت من أجل أن تنال الهند، الكرامة، بل جعلتها في مقدمة الدول غير المنحازة مع بذل أقصى الجهد، كي تحل المشاكل الداخلية، التي تعصف من حين إلى حين، ويستغلها معارضو حكمها سوطاً يجلدونها به، ويدخلونها إلى السجن كما حصل في العام ١٩٧٧ . وكانت تخرج منتصرة لتواجه شعبها بشجاعة، لتقول له وللعالم: «**من لا يدرك عظمة الهند، لا يستطيع أن يحكمها**».

ويقول الكاتب الفرنسي الذي قدّم لكتابها: «**إنها رجل الهند الأقوى**» و «**إنها تخطت والدها في الحسم والشجاعة**». كما لقبها آخرون: بـ «**المرأة الفولاذية**» نسبة الى صلابة مواقفها.

* * *

لكن ذلك كله لم يحل دون قيام مناوئيها بعدة محاولات لاغتيالها. وكانت المرة الأولى عام ١٩٦٧ في أوريسا وفي أثناء إلقائها إحدى خطبها، حين اندفع رجل من بين الجماهير ورشقها بحجر حطم أنفها، وشق شفتها السفلى، فردت الساري لتغطي الدم السائل، وبقيت ثابتة مكانها.

وهذا ما دفعها إلىالقول: «**يهاجمونني كثيراً، لكن ذلك لا يخيفني**». وحين أطلق رجال حرسها النار عليها، وهي خارجة من مكتبها، لتعبر الحديقة إلى حيث كان ينتظرها المخرج **بيتر أوستينوف**، ليعد فيلماً عنها، لم يظهر عليها الخوف، بل ارتسمت المفاجأة فوق تعابير وجهها.

وكان الوقت باكراً، الساعة التاسعة وثماني دقائق، بتوقيت نيودلهي، من نهار الأربعاء في ٧ تشرين الثاني، عام ١٩٨٤ .

وبينما هرع الناس، ليرفعوا سيدة الهند الأولى، من تلك السقطة المميتة، كانت كلمات أثيرة لها، ترتفع فوق الرؤوس، لتسافر مع الرياح والغيوم، في جهات الأرض الأربع:

«**لا تهمني الحياة الطويلة. لا أخشى تلك الأمور. لا يخيفني أن**

أبذل حياتي في خدمة هذا الوطن. إذا متّ اليوم، فإن كل قطرة من دمي سوف تجري لتنشط بلدي وتُقَوِّيه»...

---

- مذكرات أنديرا غاندي.
- أرشيف وكالة رويتر.
- مجلة تايم الأميركية ١٢ ك٢ ١٩٨٤ .

# ادفيك جريديني شيبوب

«كانت المرأة في لبنان موضوع وحي؛ وكان القلم النسوي ليُعشَق لا ليَـعشق، حتى كانت إدفيك...».

سأحاول جهدي ان تكون شهادتي موضوعية، قدر المستطاع، إذ يصعب عليّ فصل كلماتي عن نبض القلب وبثّ العاطفة.

لقد رعت هذه السيدة النبيلة بداياتي الأدبية والصحافية؛ وأحاطت كياني الهش، زمان تكوينه الأول، بالمحبة والعناية، وأدخلتني ملكوت دنياها النيّرة وعالمها المضيء.

في ذلك الزمان الأول بيننا، وحين كنت مدرسة لولديها: **سرمد وسناء، في الكلية الوطنية بالشويفات.** ثم بعد حين، عندما دعتني كي أساهم في الكتابة لمجلة «**صوت المرأة**» الصوت النسائي القوي لتلك المرحلة، وكانت هي رئيسة تحريرها.

تحضرني بضعة مشاهد من لقاءاتنا الأولى اعددها باختصار وكما سجّلتها الذاكرة:

- إطلالتها البهية على المعهد الداخلي، وكنت أسمع في صوتها العذب وعود السماء وملائكتها؛ خصوصاً حين تدعوني لأكتب لمجلتها، أنا التائقة لبلوغ ذلك الحلم البعيد.

- استقبالها المرحب بي في دارتها الصغيرة الدافئة، في حيّ المنارة، رأس بيروت، حين لم أكن أعرف من بيوت العاصمة سواها. وكنت أقصدها كمن يقصد منارة أو محجة.

- دخولي أجواء عالمها البسيط، والملهم وجلوسي إليها، أتأملها معلمة سلوك وأنفة.. رهافة حس، وعزة نفس.

– منها تعلمت المثابرة والاجتهاد؛ وكنت أراها تنهض مع الفجر، وقبله أحيانا، كي تلحق عملها في الإذاعة اللبنانية، لتفتح النهار الجديد بصوتها المتفائل.

– مرافقتها الى ندوات الأدب. معها حضرت لأول مرة مؤتمرا للأدباء العرب حين انعقد في **بيروت**، منتصف الخمسينات، وكانت تلك أول مناسبة أقترب فيها من عمالقة الفكر والأدب أمثال **ميخائيل نعيمه ومارون عبود**، وأتحدث اليهم، بل وأتصور معهم. أي سحر كانت تحويه يداها، وهما تفتحان لي الأبواب، للعبور، في الحلم كما في الواقع؟...

* * *

وأعود الى أوراق، أحفظها في ملف خاص بها، وأتوقف عند بعض محطات:

فهذه صحيفة «**التايمز**» **اللندنية** تقدم السيدة، في مقال نشرته في عدد خاص عام ١٩٦٢، عن أبرز شخصيات زارت **بريطانيا** تلك السنة، وكانت الأديبة اللبنانية واحدة من ثلاث نساء شهيرات احتفت بهن الأوساط الأدبية والنسائية، ومن مقدمة المقال أقرأ:

«**قالت أمها: أختها يمكن ان تتزوج أي رجل، فهي قوية، وباستطاعتها ان تعمل، أما إدڤيك الصغيرة، النحيلة القد الرقيقة المشاعر والمرهفة الأحاسيس، فيجب ان تتزوج رجلاً ثرياً يعنى بها**»...

وبالطبع، لم تكن الصحيفة البريطانية الأولى تقدم لقرّائها «**زوجة الرجل الثري**» بل السيدة التي كتب لها، وفي مرحلة مبكرة من

حياتها، ان تواجه قدراً قاسياً حطم أحلامها، ونثر أمانيها، وهي بعد في مطالع ربيع العمر.

كذلك كانت الصحيفة تقدم المرأة النموذج، وقد تجاوزت المأساة، وانتصرت على قدرها، حين ردت له الصفعة، عطاءً بهياً، في حياتها وفي عملها.

* * *

ولدت إدڤيك في **الشويفات**، البلدة الجميلة، المطلة على العاصمة من فوق تلالها الخضر. تاريخ ولادتها الاول من شهر شباط، عام ١٩٢٢ . ابوها **سليم جريديني**، وامها **هيتي جريديني**. وهي واحدة من اربعة اولاد: **ميشال، امين، هيلين وادڤيك** الصغرى بينهم.

في مرحلة باكرة، هاجر الاب الى دنيا الاغتراب، ممتطيا صهوة المغامرة كي يؤمن لعائلته الرزق. لكنه، على ما يبدو، لم يوفق في الاغتراب. ولم يرجع. وبقيت مسؤولية العائلة على عاتق الزوجة، الى جانب مسؤولية امه العاجزة.

وكانت **هيتي** صبية حلوة، ذكية ومثقفة، وقد ساعدتها ثقافتها على ايجاد عمل في التدريس. وقضت ردحا من عمرها تدرّس في معاهد **العراق**، ووفرت لأولادها، فرصة متابعة دراستهم العليا، ثم الجامعية.

اما **إدڤيك** فقد تخرجت من مدرسة **الشويفات**، تحمل شهادة ثانوية، ثم التحقت **بالجونيور كولدج (الجامعة اللبنانية الأميركية)**. وفيها نالت شهادة «**صوفومور**».

وهنا، لا بد من ذكر لقاء هام في حياة الصبية الجميلة، المثقفة، والمطلة على الحياة إطلالة أمل وشوق الى اختراق جدران الغد... وكان ذلك اللقاء بشاب لبناني بدأ اسمه يتردد فوق الشفاه، ورسالته تنتقل في اوساط الشباب حاملة بذور افكار سياسية واجتماعية جديدة..

لم يكن ذلك الشاب سوى **انطون سعادة**، مؤسس **الحزب القومي السوري**، او القومي الاجتماعي، كما يُعرف حاليا. فقد علق قلب الشاب بالفتاة المتميزة بالحس المرهف، والذكاء، الى جاذبية تلفت اليها الانظار.

واحبته هي، مثلما تحب الصبية فتاها الاول. لكنها لم تلبث ان سافرت الى بغداد، حيث تقيم امها مع زوجها الثاني، واولادهما. والفراق كان فرصة تراسل بين الحبيبين، وقد نشرتها الكاتبة عام ١٩٩٧ فكان لها صداها في الأوساط الثقافية. فهي الى كونها رسائل وجدانية من طراز رفيع، فإنها سجل فكري هام. ولم يتم النصيب، فألغيت فكرة الزواج وبقيت الحكاية محفوظة بين أوراق الورد.

لكن الصبية السارحة مع أحلام عمرها الطري كانت تجهل ما يخبئه لها غدها... ففي يوم التقت قارئ كفّ أثار فضولها للوقوف على أسرار الأيام المقبلة، عبر الخطوط الغامضة في باطن كفها.

وأترك لقصيدة «**قدر**» من ديوانها الشعري الأول «**بوح**» أن تروي البقية:

«اتجهت العيون كلها، نحو الشيخ الغريب،
مكباً بلحيته البيضاء، يفك باهتمام،
رموز الكف المبسوطة في كفه
جاء دورها، صغراهن!
فبسطت كفها وأنصت الكل.
عقد الشيخ حاجبيه
كأن شبحاً مخيفاً طالعه...
ثم حدق في الوجه الهادئ،
وفي العينين الحالمتين،
وقال في تمتمة رصينة:
«زواج قريب...
وأرى في حياتك، بعد السنوات الأربع
تجهماً وانقلاب عيش..
قد يكون فقدان زوج!!»

سحبت كفها، وطردت من سمعها أصداء الكلمات. هي في أوج الصبا والتألق. ومن، من يأبه لكلام عراف؟..

* * *

لكن الكلام لم يبق كلاما، بل تحول الى واقع حين أطل على حياتها مهندس شاب، سرعان ما أحبها وبادلته العاطفة حين اكتشفت فيه رجل أحلامها. وانتهى الحب الى زواج سعيد، ثم انتقل المهندس

**توفيق شيبوب** وعروسه الحلوة الى مدينة **طرابلس**، حيث ارتبط بعمل مع شركة مقاولات نامية عرفت باسم «**كات**».

كان ذلك في العام ١٩٤٠، ورزق الزوجان طفلاً وطفلة سمياهما: **سرمد وسناء**. ورفرفت السعادة بظلالها على المنزل الزوجي. اكتملت فرحة الصبية، وراحت تغرف النشوة والهناءَ ولا تحسب لغدر الزمان حسابا.

وذات صباح، وفيما كان الزوج خارجاً الى عمله، لاقاه أحد العمال وغافله بطعنة خنجر أودت بحياته. وصدقت نبوءة العرّاف.

كانت تلك الفاجعة، المنعطف، ونقطة التحوّل في حياة **إدڤيك**.

جاءها الخبر وهي ترضع طفلتها **سناء**، ابنة الأشهر الثلاثة، وتحضن بذراعها الثانية، الطفل **سرمد**، ابن السنتين. ومثل ومْضِ البرق لمعت في ذاكرتها الكلمات: **تفقدينه بعد أربع سنوات**.

* * *

العام ١٩٤٤، الزمن الغارق في الحرب، والأرملة الصبية متروكة مع طفليها بدون معيل، وليس من معين سوى العناية الإلهية، وخمسة آلاف ليرة صرفتها الشركة كتعويض للأسرة المفجوعة. وكان واسطتها من تسميه: «**الرجل النبيل الذي وقف الى جانبي**» وهو رجل الأعمال المعروف **شكري الشماس**. عنه، وضعت الأديبة فيما بعد، كتابها «**حياة صراع وانتصار**» أو **سيرة شكري حنّا الشماس**؛ وإليه اهدت الكتاب اعترافاً منها بوقوفه الى جانبها، ومساندتها في أحلك الأوقات.

ولم تتوقف مساعدة **الشماس** وزوجته **أولغا** عند هذا الحدّ، اذ دفعا صديقتهما الصبية لتخرج من شرنقة عزلتها، من حزنها ووحدتها وتبحث عن عمل. واستمرا في دعمها وتشجيعها فيما بعد، وهما يبصرانها تحلق وتنتصر.

* * *

قضت **إدڤيك** أيام حزنها في صمت ثقيل، وعزلة مميتة، الى أن جاء يوم اتخذت فيه قرارها الشجاع، فغادرت **طرابلس** الى **بيروت**، وراحت تبحث عن عمل يؤمن حياة كريمة لها ولطفليها.

كانت تملك من الطاقات صوتاً جميلاً، اكتشفته أيام دراستها الجامعية، حيث لقبوها «**العندليب**». لكن موهبة كهذه، إن كانت مقبولة كهواية، فقد كانت مستهجنة كمهنة، لسيدة مجتمع محترمة. وتذكرت موهبة ثانية ظلت مغلفة كالبرعم الندي طي الكتمان: «**إدڤيك تكتب رسائل لطيفة، يشتم منها نفس أدبي**» وكانت هذه شهادة الأم والصديقات.

لكنها، وبدون شك، ذات خبرة، وإن محدودة في التدريس؛ فلماذا لا تعود الى مزاولة مهنتها تلك؟ خصوصاً وأنها مهنة تسمح لها بالبقاء قرب طفليها؟

وهذا بالضبط، ما فعلته، حين قبلت عرضاً قدم اليها من «**جامعة نساء لبنان**» «**ابنة الاستقلال**» كي تدير روضة أطفال أنشأتها الجامعة لأطفال الأسر الراقية، وبمساعدة **شكري الشماس**.

العمل ملائم وهي الى جانب طفليها. وراحت تبتكر لأطفالها الباقين، الطرق الفنية، والأساليب الطريفة لتجعل التعليم في هذه

المرحلة متعة حقيقية. وهنا، تمكنت من توظيف صوتها الجميل، في تأليف ترانيم خاصة، كانت هي تبتكر كلماتها وألحانها.

* * *

في مكان ما، في الجوار، كانت هناك أذن تصغي... أم أنه القدر، ظنته أغفلها؟... وإذا به يعود ليطل عليها بوجه جديد؟...

أو لم تقل لها أمها، وهي تحاول انتشالها من السقوط في اليأس: **«إنهضي يا بنية. وارفعي رأسك. ربما اختارك قدرك لتكوني أكثر من زوجة مهندس وربة بيت. إنهضي، يا صغيرتي..»**.

* * *

خلف الجدار الناهض على كتف الحضانة، كانت تحتجب صاحبة تلك الأذن النقادة والعين اليقظة: رائدة فكرية، نسائية، واجتماعية. سجلت لها انتصارات عديدة في ساح الحياة، لكن المرض أقعدها باكراً حين شل منها الجسد، وبقيت الروح، صافية، والذهن متوقداً، والعقل منارة هدى.

التقطت أذنها الصوت الجديد في الملعب المجاور، فسطرت على رقعة من الورق بضع كلمات، ضمنتها رسالة نقلتها حفيدتها، (الطالبة في الروضة) الى صاحبة الصوت.

قالت كلماتها: **«يا جارتي الصغيرة، أنا مقعدة. هل تزورينني لكي نشرب معا فنجان شاي؟.»** وحمل التوقيع اسم: **جوليا طعمه دمشقية.**

لم تكن **إدڤيك** تجهل من تكون السيدة، ولم تصدق متى انتهى نهارها العملي ذاك، فقطعت زهرتين من زهرات الحديقة، حملتهما

وهرعت الى منزل **جوليا**. وما كادت تطل عليها من الباب، حتى فتحت لها السيدة الجليلة ذراعيها، مرحبة: و «**بكينا معاً.. وأحببنا بعضنا من اللقاء الأول**» هذا ما تذكره **إدڤيك** عن ذلك اللقاء القدري.

* * *

وكأنما **جوليا** الرائدة، كانت تبحث عن قضية، وجدتها في شخص **إدڤيك**. وقد لفتتها اليها نغمة شجية في صوتها، فقدمتها الى مدير الإذاعة الوطنية في حينه، **محمد صبرا** قائلة: «**لديها قماشة ممتازة وعليك ان تكتشف مواهبها وتستفيد منها**».

وبالفعل أخضعت الصبية لتجربة صوتية، اجتازتها بنجاح، وإنما للإذاعة لا للغناء، وكان ذلك عام ١٩٤٦ .

* * *

لم تكن لديها خبرة في الكتابة. لكن الحاجة تولد الابتكار؛ واغتنمت أقرب الموارد منها، وراحت تغرف من تجربتها إرشادات تسكبها في مقالات تربوية. وظلت الأذن المهتمة تواكبها، وتسجل تقدمها.

وفي عام ١٩٤٩ اصبحت **أدڤيك** مذيعة رسمية، في الاذاعة اللبنانية تفتح النهار الجديد، في الخامسة والنصف من صباح كل يوم، فتقدم البرامج ونشرة الأخبار. ثم تعود الى دارها، حين يبدأ الناس الخروج الى اعمالهم. وهنا، خطر لها ان تستغل وقتها الباقي في متابعة تحصيلها الجامعي، حتى تخرجت من الجامعة الأميركية تحمل **بكالوريوس آداب** بدرجة تفوّق.

كانت تلك مرحلة الاختبار وشحذ المواهب. وانفتح لها حقل الإعلام على رحبه، فراحت تكتب، أو تترجم مقالات لمجلة «**صوت المرأة**» التوأم الآخر لمشاريع جامعة نساء لبنان.

أما عملها الإذاعي، فلم ينحصر في إذاعة لبنان، بل كانت تعقد ندوات، وأحاديث ثقافية من إذاعات أخرى مثل «**الشرق الأدنى**» و «**إذاعة لندن**». وقد وجدت نفسها في العمل، فراحت تنمو وتعيش في صميم الأحداث الفكرية والأدبية والفنية. بل إنها كانت المشجعة ورفيقة البدايات لعدد من الأدباء والفنانين، خصوصاً عندما تسلمت رئاسة تحرير «**صوت المرأة**».

* * *

لدى هذه السيدة صفات لا يحيط بها الوصف؛ لكني أتوقف هنا، عند ميزة رافقتها منذ البداية، وتداخلت في كيانها، حتى أصبحت طبيعتها الثانية، وأعني ميزة الإيجابية، تتبعها، فلسفة، وتبثها دروساً عميقة في نفوس تلميذاتها؛ وكل من سمع صوتها من الإذاعة، أو قرأ لها لا بد أن تكون لامسته نفحة من فلسفتها تلك. وبفضلها، تمكنت من الارتفاع فوق الجراح والآلام، لتحلّق مثل نورس، يندفع أبداً في الارتقاء نحو أبعاد جديدة، وفي ذلك قالت الأديبة **روز غريب**: «**إن إدڤيك عرفت كيف تنبت من الشوك زهراً...**».

تعترف اليوم، السيدة الرائدة بأنها في تلك المرحلة الأولى من صراعها مع الحياة، كانت تتقوى، كل يوم، بالإرادة، كي تتغلب على العاطفة. وارتضت أن تعيش حياة بسيطة، تضمن لها حريتها وكرامتها، وتعطيها فرصة تربية ولديها في عز وعافية، ولم تبخل

عليهما بالوقت أو بالمال، بل عاشت من أجلهما، وفي سبيل مضاعفة الوزنات التي وهبتها.. وما دامت ابواب العلم مشرعة في وجهها، فليس لطموحها أي حدود.

وها هي عام ١٩٥٤ تنشر كتابها الأول «**بوح**» وهو مجموعة رائعة من بواكيرها الشعرية. بل انها قصة حياتها موزعة في قصائد وأهازيج مبتكرة، توقف عندها النقاد، وكتب عنها الشعراء، وقدم لها الشاعر **سعيد عقل** معبرا عن تقديره الكبير: «**إدڤيك واحدة الخواطر الشهمة في ذهن الغزل. برت به يوم كانت في البادئين. وبرت به أكثر يوم أرادته لفحا لا نارا، وأناقة لا بذخا... هذه الشاعرة الطليقة كربيع من لبنان، لم تنتظر أن يدعوها الغزل. لقد قصدته. من هنا مسحة الطرافة في بثها البهي. كانت المرأة في لبنان موضوع وحي، كان القلم النسوي ليعشق لا ليعشق، حتى كانت إدڤيك..**»

وبنفس الأناقة والشفافية والحنين، كتبت مجموعة قصائدها الثانية «**شوق**»، فجاءت الأخت التوأم للاولى، وقد صدرت عام ١٩٦٢ .

وبقي الشعر الزاوية الحميمة في حياتها، تفيء اليه من تعب نهارها، ومن نضال متواصل، إن على صعيد العمل الاذاعي والصحفي، أو النشاط النسائي، وقد حملت لواءه ردحاً من عمرها، وتركت بصماتها على نهضة المرأة اللبنانية في هذه الحقبة. بل ظلت أشد المتحمسات لقضاياها المثارة حول الحرية، والمساواة والعدالة والحقوق المشروعة. ومن أجل مساندة المرأة في نضالها، كانت لها مدرستها الاذاعية طوال خمس ثلاثين سنة، ومدرستها الثانية، الصحافية، عبر مجلة «صوت المرأة». وظلت رئيسة تحريرها من عام ١٩٥١ حتى عام ١٩٥٨ . ثم مجلة «دنيا المرأة» من العام ١٩٦٠ حتى ١٩٦٦ .

وقامت بعشرات الرحلات لحضور مؤتمرات عقدت في مختلف بلدان العالم، لبحث القضايا النسائية.

وبفضل نشاطها المتميز في هذا المجال، دعيت من قبل دول او إتحادات نسائية عدة، لحضور ندوات، أو التعرف الى نهضة المرأة في تلك البلدان، والإطلاع بالأخص، على نشاطها في المجال الإعلامي.

وكانت هي، بدورها، تنقل أجمل صورة عن المرأة اللبنانية المثقفة، فتقوم بعمل سفارة غير رسمية.

وبالطبع، لم يؤخرها عملها المتواصل عن تنشئة ولديها تنشئة صالحة؛ فابنها **سرمد** أصبح مهندساً ناجحا، وابنتها **سناء** اليوم ربة عائلة ناجحة وزوجة مثالية وأم سعيدة.

كذلك لم يمنعها نشاطها عن متابعة دراستها وقد عادت الى الجامعة، وحصلت على شهادة «**ماجستير**» آداب عام ١٩٦٩ . أي عام تخرج **سرمد** من كلية الهندسة. وبذلك وضعت على دروب المرأة، في لبنان والعالم العربي، نموذجاً جديداً لطموح المرأة وتحقيق الذات.

اما عملها في التأليف، فيمكن أن نوزعه على مراحل: الأولى منها كانت مرحلة الشعر. وحسب رأي الناقدة والاديبة **روز غريب** «**انطلق شعرها عفويا على غير مثال، من صدمة عنيفة جابهتها. وصدر عن قلب يرى في الحب نعمة الحياة الكبرى، الحب، بجميع صوره، من حب الأم، والولد، والزوج، الى حب الفن والطبيعة: الطير والبحر والشجر، والتعاطف مع الحزانى، والموجعين من بني البشر**».

وبين الكتابين صدر لها «**ذكرياتي مع جبران**» (١٩٥٧) كما

رواها لها رائد النحت في لبنان الفنان **يوسف الحويك**، وهي من ذكرياته في **باريس**، مع صديقه **جبران خليل جبران** بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١٠ . وكانا طالبي فن، وفي عنفوان الشباب. وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية عام ١٩٩٥ .

وألفت لليافعين قصة «**الطبيب الصغير**» وتدور أحداثها حول الحياة الفطرية الحلوة في لبنان. ثم كتاب «**الحرف الشعبية في لبنان**» وهو عبارة عن دراسة موضوعية عن الحرف، منذ العهد الفينيقي وحتى يومنا الحالي. والكتابان حازا على جائزة «**أصدقاء الكتاب**» أثر صدورهما. كما نالت الأديبة جائزة رئيس الجمهورية التقديرية تتويجاً لأعمالها الأدبية عام ١٩٧٤ .

* * *

وهذا الولع بالأطفال، وبكل ما هو من أجلهم، نابع من اعماق بئر الأمومة الحقة التي احتضنت، منذ مطلع صباها طفليها، وكرست لهما حياتها، فكانت الأم والأب في آن معا...

كما انه نتيجة وعيها لأهمية التربية في حياة الأفراد والشعوب. وقد ساهمت في المجال التربوي مباشرة - في التعليم - وبطريقة أهم، في الإذاعة والصحافة، حيث كانت لها الأفكار البناءة، والتوجيه الصحيح. ولم تتخل عن ذلك الاهتمام في التأليف، وقد وجهت جزءاً كبيراً من كتابتها، باتجاه الطفولة، وكأني بها، تكمل الحلقة التي تربط أجزاء شخصيتها الغنية الوجود والعطاء. واذا هي اقتربت، من الطفل، لتروي له الحكايات، فانها تفعل ذلك، وفي مقلتيها صور أحفاد يتوجون أيامها بالفرح الغامر، والرضى عن الذات، والاكتفاء بما

أعطت. وهذا أفضل ما يبقى، بعد عمر من الجهد المتواصل، والصراع الطويل.

أما نشاطها الاجتماعي والثقافي فيمكن تلخيصه كالآتي:

**– نائبة رئيسة لجنة الإعلام في المجلس النسائي الدولي مدة ١٢ سنة.**

**– رئيسة جمعية «تشجيع الفنون في لبنان».**

**– عضو جمعية اللبنانيات الجامعيات، ومندوبتها لدى المجلس النسائي اللبناني.**

**– عضو مجلس الأمناء، لمؤسسة الأمل التي تعنى بالأولاد المتخلفين عقليا.**

**– رئيسة لجنة الإعلام في المجلس النسائي اللبناني مدة ١٥ سنة. ومستشارة المجلس الاعلامية.**

وتحمل السيدة **إدڤيك** عدّة أوسمة أذكر منها:

**– الميدالية الفخرية المذهبة، «وسام المرؤة والشرف» تقديراً لصمودها في الاذاعة أثناء حوادث ١٩٥٨ .**

**– وسام الأرز من رتبة فارس ١٩٦٨ .**

**– وسام الأرز من رتبة ضابط ١٩٨٥ .**

**– جائزة رئيس الجمهورية تتويجا لأعمالها الأدبية ١٩٧٤ .**

* * *

امثولة من عصرنا؟!.. بل نموذج للمرأة الناجحة، بفضل عصاميتها وسعيها، وإيمانها وايجابيتها البناءة.

---

- مقابلات عدّة معها.
- مؤلفاتها في السيرة وفي الشعر والقصة.
- صحيفة التايمز اللندنية - عدد خاص عن اشهر نساء زرن بريطانيا سنة ١٩٦٢ .

# فهرس


أم كلثوم ..... ٥
فيجايا لاكشمي باندیت ..... ٢٣
سلوى نصار ..... ٣٥
زاهية أيوب ..... ٤٩
وداد المقدسي قرطاس ..... ٦١
نجلا صعب ..... ٧٣
روز غريّب ..... ٨٥
سهير القلماوي ..... ٩٩
جمال كرم حرفوش ..... ١١١
أمينة السعيد ..... ١٢٥
شفيقة قره كلا ..... ١٣٩
أنديرا غاندي ..... ١٥١
ادڤيك جريديني شيبوب ..... ١٦٥

تُقدم فُصول هذا الكتاب، بأجزائه الستّة، وجوهاً لنساءٍ رائدات، من الشرق ومن الغرب. وقد اخترتها بقصد تسليط الضوء على ما مرت به المرأة، عبر العصور، من صراع مع نفسها، ومع محيطها، في سبيل إنماء طاقاتها، وتحقيق طموحها وأحلامها، وبالتالي، بلوغ الرتبة الرفيعة التي استحقتها.

وإذ أضع، بين أيدي قرّاء العربية، هذه النماذج المتغلّبة والمتفوقة من النساء، أتوخى ان تكون كل واحدة من رائدات الأمس، مشعل هداية وإلهام لرائدات الغد.

ا. ن.

**نساء رائدات** (١) من الشرق
**نساء رائدات** (٢) من الشرق
**نساء رائدات** (٣) من الشرق
**نساء رائدات** (٤) من الغرب
**نساء رائدات** (٥) من الغرب
**نساء رائدات** (٦) من الغرب